الباب الثالث

مقومات شعر الفتوح وطوابعه

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

شعر الفتوح

أنواعه وموضوعاته

١ ـ قصيد ورجز

نحن أحوج ما نكون هنا إلى أن نتـذكر ما قدمنا من وصف لتحـركات الجيوش، وعنف المقـاومة وأهوال القـتال، وما كـان يشغل المحـاربين من التـحول الدائم والحـركة الدائبة، وما كان يملأ نفوسهم من مشاعر الأمل والخوف والقلق والغبطة، وغير ذلك من إحساسـهم بالوجل والاغتراب، ومـا يمكن أن يتعرضوا له أمـام عدوٍ باطش، فى أرض بعيدة عن أرضهم وعن ذويهم.

حقـا كانت فكرة الجهاد تجـذبهم بألقها، وتدفـعهم إلى استرخـاص أرواحهم فى سبيلها، مؤمنين بنصر الله وبما وعـدوا من الجنة وحسن المآب، ولكن العواطف الإنسانية المختلفة لا بد أن تثير فيهم هذه المشاعر، فى مثل هذا الموقف الرهيب.

ومهما كانت مشاغل الفاتحين واهتماماتهم عظيمة وضخمة، فإنها لا بد أن تضيق عن استنفاد مـثل هذه المشاعر، ولا بد أيضا لهـذه المشاعر أن تجد منفذا تـتسرب خلاله طاقاتها، فيفرج عن الفاتحين بعض ما تزخـر به جنباتهم، ويعبرون فيه عن هذه العواطف وتلك المشاعر.

وقد استنفد التعبير الشعرى كل هذه الطاقـات النفسية واستوعبها، إذ انطلق الشعر على كل لسان، وقـدمت الفتوح بانتشـارها وتمددها لهؤلاء الفاتحين مادة هذا الـشعر فى أحداثها، وما تثيره من أحاسيس فى هذه البيـئات الجديدة، وما عانوا فيها من ابتعاد عن بيئتهم.

وقام الشعـر بهذه المهمة خير قـيام، وإن طبع بطوابع أملتها عليه الظروف القـاسية للمعارك وتلاحقها وعنفها، فاتسم بخصائص معينة فى شكله ومضمونه.

ومن اليسـير أن نتتبع أنـواع هذه المنظومات، وأن نجمعـها فى نوعين كبـيرين من حيث الشكل الفنـى، وهما: القصـيد والرجز. فمـع أن الرجز ليس إلا وزنا من أوزان

الشعـر، وليس له قالب مستقل بذاته، إلا أننـا نميل إلى جعله نوعا مستقلا من أنواع التعبيـر، لمخالفته للشعر فى شكلـه العام، وفى اقتصاره على أبواب معينة وموضوعات بذاتها، فضـلا عن تميزه بدور كبير فى ظروف القتال، لم يتسن للشعر، فى التحميس ورفع روح المحاربين، إلى جانب أن الرجز لسهولته وقربه من السليقة العربيـة كان سبيل الشعراء المغمورين، الذين أنطقتهم الفتـوح، وهم كثرة كثيـرة. بينما كان شعر القصيد سبيل الممتازين من الشعراء، وإن كـان لم يحتفظ بخصـائص الشعر العربى التـقليدية، فأضحى مقطعات قصيرة قليلة عدد الأبيات.

وفى الحقيقة: إن شعـراء الفتوح جميعا قد خضعوا خـضوعا متماثلا للطوابع التى طبعت بها الفتوح شعـرهم جميعا، ففضلا عن تركز اهتمامـاتهم ونوازعهم فى المسئولية الضخـمة التى يحملونها فـإن ظروف القتال وقسوة الحياة تحت ظلال السيوف لم تكن لتعينهم على التنفس الغنائى الهادى، والتعبير الوجدانى المناسب، فى قصائد متأنية مديدة النفس.

ولهذا كان تنفسهم سـريعا لاهثا ومتلاحقا، وخاطفا ومـحدودا فى مضمونه وفى شكله بطبيـعة الحال، فـاتخذ القريض شكل المقطعـات القصيـرة. واستتبع هذا الإطاحة بمقدمات القصائد التى تعتبر من أهم تقـاليد الشعر العربى، الموروثة عن العصر الجاهلى، والتى ظلت تحكم الشعر ردحا من الزمان، ولم تفلح الثورات الأدبية فى الإطاحة بها بعد ذلك.

ومهما كان رأى الباحثين فى هذه المقدمـات الطللية والغزلية من أنها ترتفع بالشاعر إلى بيئـة شعرية رفـيعة يخـرج فيهـا عن أطوار الحياة الواقـعية المـادية إلى عواطف الحنين والشوق مما يعده للغناء(١) فإن الشاعر كان يجد فيـها بلا ريب متنفسا للحديث عن ذاته، وإشبـاعا لمنازعه الفـردية، قبل أن يشغل بغـرضه الذى كان ينصـرف دائما إلى الفناء فى وجدان القبيلة بحكم وضعه الاجتماعي.

والأمـر مخـتلف فى الفتـوح، فليس هناك مـا يدعو إلى أن يخـتلق الشاعـر فى مقـدمات قصيـده، ما يكون مسـربا لفرديته، إذ ليس هناك حـرج فى أن يشيد الشـاعر

(١) حديث الأربعاء ج١ ص٢٢.

obeikandi.com

بذاته، ويعبر عن فرديته داخل إطار الجماعة الإسلامية تعبيرا حرا، دون التجاء إلى المقدمات التى لا بد أن تشغله فى مثل هذه الظروف المضطربة السريعة الأحداث عن التعبير المباشر.

وكما تخفف شعر الفتح من المقدمة الغزلية والطللية تخفف بالضرورة من النظام التقليدى للقصيدة الذى ساد فى الشعر العربى، وأوصى نقدته باتباعه والتمسك به قرونا. هذا النظام الذى يوجب تعدد الأغراض فى القصيدة الواحدة، فتبدأ بذكر الأطلال، ثم ينتقل الشاعر منه إلى النسيب فوصف رحلته وما يعترضه فيها، ويصف ناقته التى تقله، ويشبهها بما يشاء من الحيوان، حتى يصل إلى غرضه من المدح أو غيره.

وذهب بعض نقاد العرب مذهبا متعسفا فى تعليل حسن هذا النظام والدعوة إليه من ثم والتوصية بالتمسك به والمحافظة عليه، ففى رأيهم: أن مقصد القصيد إنما ابتدأ بذكر الديار والدمن والآثار، فبكى وشكا، وخاطب الربع والدمن والآثار، ليجعل ذلك سببا لذكر أهلها الظاعنين عنها، إذ كانت نازلة العمد فى الحلول والظعن على خلاف ما عليه نازلة المدر، لانتقالهم من ماء إلى ماء، وانتجاعهم الكلأ، وتتبعهم الغيث حيث كان، ثم وصل ذلك بالنسيب فشكا شدة الوجد وألم الفراق، وفرط الشوق والصبابة، ليميل نحوه القلوب، ويصرف إليه الوجوه، ويستدعى به إصغاء السامع إليه، لأن التشبيب قريب من النفوس، لائط بالقلوب، لما قد جعل الله فى تركيب العباد من محبة الغزل وإلف النساء فليس أحد يخلو من أن يكون متعلقا منه بسبب، أو ضاربا فيه بسهم، حلال أو حرام. فإذا علم أنه استوثق من الإصغاء إليه والاستماع عقب بإيجاب الحقوق، فرحل فى شعره، وشكا النصب، والسهر، وسرى الليل، وحر الهجير، وإنضاء الراحلة والبعير. فإذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حق الرجاء وذمامة التأميل، وقرر عنده ما ناله من المكاره فى السير بدأ فى المدح، فبعثه على المكافأة، وهزه للسماح، وفضله على الأشباه، وصغّر فى قدره الجزيل[1].

ومن ثم: يلزم هؤلاء النقاد الشعراء بأن يسلكوا تلك الأساليب لا يتعدونها، وأن يعدلوا بين أقسامها، ولكن أنى للشاعر المحارب فى أى زمان ومكان أن يصنع هذا، وأن

(١) الشعر والشعراء ج١ ص٢١.

يزيف مشاعره بهذه الصورة المعقدة، وهى على طرف لسانه يريد أن يلقى بها تلقائيا وبطريق مباشر، دون أن يجعل بينه وبين غرضه الملح هذه الحواجز المتدرجة، وتلك المراحل المتسلسلة.

إن الشاعر المجاهد ليريد ــ قبل أن يشعر أنه يريد ــ أن ينفض ما بنفسه ابتداء دون تقيد بتقاليد أو تمسك بنظم فى التعبير، إلا ما يفرضه طبيعة الإحساس النفسى، والحالة الشعورية التى تتقمصه.

ولهذا فلن نجد بين شعر الفتح كله قصيدة واحدة تزيد أبياتها عن عشرة أبيات، ولن نجد قصيدة تشتمل على أكثر من غرض واحد إلا فيما ندر، فكل مقطوعة تستقل بموضوع واحد. يعبر عنه الشاعر هذا التعبير المندفع السريع.

وأدى هذا إلى جانب انطلاق الشعر على ألسنة الكثيرين من الفاتحين العاديين إلى أن يكثر الرجز، وأن ينفك عن وظيفته التى كانت له فى الجاهلية كأداة للتحميس، وشحذ القوى وإلى أن يشارك القصيد فى التعبير عن بعض موضوعاته التى تخرج عما ألفه الرجز فى الجاهلية، من الحرب والمفاخرة والحداء فكاد يكون قسيم الشعر القصائدى، وإن ظل فى شكله ومضمونه لا ينم عن إعداد أو عناية، نتيجة قربه من السليقة الفطرية للعرب، وارتجاله فى المواطن المختلفة؛ وإن ظلت له نفس المهمة فى التحميس. وسوف نرى أنه لم يقصر عن خوض الموضوعات التى خاضها الشعر إلا فى القليل الذى لا يتفق وإيقاعه العنيف.

٢ ـ موضوعات قديمة متطورة

تغنى الشعر كما تغنى الرجز بموضوعات بعضها قديم تداوله الشعر العربى على اختلاف عصوره كالحماسة والرثاء، وبعضها الآخر جديد، لم يعهده الشعر العربى قبل الفتوح. فشعر الجهاد وإن جال فى تصوير ظروف الفتح الجديدة فإننا لا نستطيع أن نعده بابا جديدا من أبواب الشعر، وكذلك الرثاء، إذ إن لهما جذورا فى الشعر العربى ثابتة، وغاية الأمر أن هذه الظروف الجديدة قد كست هذين اللونين من الشعر صبغا جديدا، فتطورا قليلا، وإن دلا على تأثرات جديدة فإن أصلهما واضح جلى فى الشعر العربي.

ونعنى بشعر الجهاد: ذلك الشعر الذى يهدف إلى الإشادة بما كان من إقدام الجند أو الكتيبة أو الشاعر، أو صديق له أو زميل، أو قائده أو عدوه. وعن كل هذه الطرق يعبر الشاعر عن قسوة المعارك، وضراوة القتال، وشدة اللقاء، وما كان يحدث فى أثناء المعارك من إقدام أو إحجام، وما قد تنتهى إليه من نصر أو هزيمة، وما يكون بعد ذلك من فخر أو تصميم على الثأر والانتقام، بينما قد يكون تصوير المعارك وما تشتمل عليه طريقا إلى الإشادة بالنفس أو بالغير، وهكذا.

وهذا الموضوع هو أكثر موضوعات الشعر التى بين أيدينا ترددا واتساعا، ومن أمثلة هذا الشعر الذى يشيد ببلاء الجماعة الإسلامية وبسالتها وإيقاعها بالعدو قول خليد ابن المنذر فى يوم طاووس:

بطاووس ناهبنا الملوك وخيلنا ... عشية شهراك علون الرواسيا
أطاحت جموع الفرس من رأس حالق ... تراه كموّار السحاب مناغيا
فلا يبعدن الله قوما تتابعوا ... فقد خضبوا يوم اللقاء العواليا[1]

وقد يجعل الشاعر تصوير المعركة سبيلا إلى تصوير بلائه والإشادة بنفسه، كقول نعيم بن مقرن، قائد المسلمين فى وقعة واج روذ بهمذان، التى تصدى فيها «الموتا» قائد الفرس ونكل به تنكيلا ــ قال:

ولما أتانى أن «موتا» ورهطه ... بنى باسل جرّوا جنود الأعاجم
نهضت إليهم بالجنود مساميا ... لأمنع منهم ذمتى بالقواصم
فجئنا إليهم بالحديد كأننا ... جبال تراءى من فروع الغلاسم
فلما لقيناهم بها مستفيضة ... وقد جعلوا يسمون فعل المساهم
صدمناهم فى واج روذ بجمعنا ... غداة رميناهم بإحدى العظائم
فما صبروا فى حومة الموت ساعة ... لحد الرماح والسيوف الصوارم

(١) ياقوت ج٢ ص٤٩٤.

كـأنهـم عند انبثــاث جـمـوعـهـم ... جـــدار تـشظى لبنه للـهـــوادم
أصـبنا بهـا «موتـا» ومن لفّ جمعـه ... وفـيهـا نهـاب قـسمـة غير عـاتم
تبـعناهم حـتـى أووا فى شعــابهم ... نقــتلهم قــتل الكلاب الجــواحم
كــــأنـهم فـى واج روذ وجـــــوه ... ضـئين أصابتـهـا فروج المخـارم(١)

وقد يشيد الشـاعر بنفسه مباشرة، فيـصور شجاعته وبأسه وفعـاله بالعدو وتفريجه كرب المسلمين كما فعل عروة بن زيد الخيل الطائى، فقال فى معركة نهاوند:

ألا طرقت رحلى وقـد نام صـحـبتى ... بإيوان شـيـرين المزخـرف خلتى
ولو شـهـدت يومى جلولاء حـربنا ... ويوم نهـاوند المهـول استـهلت
إذن لرأت ضـرب امرئ غـير خـامل ... محـيد بطعن الرمح أروع مـصلت
ولما دعـــوا يا عـــروج بن مـــهـلهل ... ضربت جـموع الفـرس حتى تولت
دفــعـت عليــهم رحلتى وفـــوارسى ... وجـردت سـيـفى فـيـهم ثم آلتى
وكم من عـــدو أشـوس مـتـمـــرد ... عليـه بـخـيلى فى الهـيـاج أظلت
وكم كــربة فـرجــتـهـــا وكـريهــة ... شــددت لهـا أزرى إلـى أن تجلت
وقـد أضـحت الدنـيـا لدىّ ذمـيـمـة ... وسليت عنهـا النـفس حـتى تسلت
وأصــبح همى فى الجــهـاد ونيــتى ... فـلـله نـفــــســى أدبرت وتـولت
فـلا ثروة الدنـيـا نريد اكـتـســابهـا ... ألا إنهـــا عن وفـــرها قـــد تجلت
ومـاذا أرجّى من كنـوز جـمـعـتـهـا ... وهذى المنايا شـــرعـا قـد أطلت(٢)

وقد يعمد الشاعر إلى وصف بلاء قائده ومقـدرته وبراعته فى سياسة جنده وفتكه بأعدائه، كقول أحد المسلمين فى جيش المثنى، إذ يقول ـ فى يوم سوق الأنبار:

---

(١) ياقوت ج٢ ص٨٧٢- ٨٧٣.
(٢) الأخبار الطوال / ١٣٨.

وللمثنى بالعال معركة شاهدها من قبيلة بشر
كتيبة أفزعت بوقعتها كسرى وكاد الإيوان ينفطر
وشجع المسلمين إذ حذروا وفى ضروب التجارب العبر
سهل نهج السبيل فاقتفروا آثاره والأمور تقتفر[1]

وقد يعمد الشاعر إلى تصوير قوة الأعداء وثباتهم، ليتخذ ذلك سبيلا إلى الفخر بنفسه وبكتيبته، مثل قول عاصم بن عمرو يوم المقرّ:

ألم ترنا غداة المقرّ فينا بأنهار وساكنها جهارا
لقينا من بنى الأحرار فيها فوارس ما يريدون الفرارا
قتلناهم بها ثم انكفأنا إلى فم القرات بما استجارا[2]

هذه نماذج لشعر الجهاد، وهى فى مجموعها لا تخرج عن فنى الفخر والمدح الجاهليين. فالشاعر إذا أشاد بنفسه أو بقبيلته أو بكتيبته فإنما يفخر بها، شأنه فى ذلك شأن أى شاعر جاهلى. وإذا أشاد بقائده أو زميله فإنما هو يمدحه، كأى شاعر جاهلى، ولكن ـ برغم هذا ـ هناك فرق كبير.

فشعر الجهاد برغم كونه فخرا إلا أنه يكتسى هذا الصبغ الإسلامى، الذى يتجلى فى بروز فكرة الجهاد، التى وهبها الشاعر بلاءه وكفاحه. وهو حينما يعلن أنه قد أصبح همه فى الجهاد يفترق عن الشاعر الجاهلى، الذى كان يفخر بالثأر والانتقام للقبيلة.

وشاعر الجهاد وإن ظل شعره يتسم بسمات الفخر فهو فخر يختلف عن الفخر الجاهلى، إذ يصور فيه الشاعر إيمانه بقضية الجهاد ذاتها، كما رأينا لدى عروة بن زيد الخيل الذى يفخر بتفريج كرب المسلمين وكشف الأهوال عنهم، ويعلن فى نفس اللحظة: أنه ارتضى الجهاد سبيلا، دون أن يكون له رغبة فى زينة الدنيا وزخرفها، فقد باع كل شيء فيها بثواب الله، برغم ما تدفعه الدنيا إليه وإلى غيره من المجاهدين من

(١) البلاذرى / ٢٥٠ ، ياقوت ج٣ ص٥٩٣.
(٢) ياقوت ج٤ / ٦٠٥.

كنوزها، فلا يغريهم كل هذا، لأنهم فى سبيل الله وحده. وما قيمة الدنيا والمنايا فاغرة أفواهها محدقة بهم من كل جانب.

وشىء آخر يختلف فيه شعر الجهاد عن الفخر الجاهلى، الذى أساسه القبلية والعصبية، فإن شعر الجهاد يقوم أساسا على الوجدان الجماعى لجماعة المسلمين، فى حين يشحب الفخر القبلى فى شعر الفتوح شحوبا واضحا.

وقد شغل الرجز بموضوعه القديم، إذ كان له دور كبير فى القيام مقام الموسيقا العسكرية فى الجيوش الحديثة، من التحميس والتعبئة الروحية للجند. فهذا عمرو بن العاص فى اليرموك يرى بعض المسلمين من لخم وجذام ينحرفون عندما ضغط جرجه فى انضمامه إلى المسلمين مفاجأة فيدعوهم عمرو إلى مواصلة الجلاد، ويهددهم تهديدا عاطفيا رائعا فى هذين البيتين، حيث يقول:

القوم لخم وجذام فى الهرب ... ونحن والروم نموج ونضطرب

فإن تعودوا بعدها لا نصطحب ... بل نعصب الفرار بالضرب الكلب(١)

وقد عبر الرجز فى هذا المقام عن الانفعالات السريعة المتدفقة فى نفوس الأبطال، وكان حافزا لهم على الإقدام والاستمرار فى النضال والفداء.

فهذا أحد عشرة إخوة من بنى كاهل من أسد يشيد بضرابه وطعانه يوم القادسية، وقد سبقه إلى الشهادة إخوته فيقول:

أنا ابن حرب ومعى مخراقى

أضربهم بصارم رقراق

أذكره الموت «أبو إسحق»

وجاشت النفس على التراقى(٢)

وهذا أحد جند المسلمين، يرى القائد الفارسى خرزاد يفر أمام المسلمين فيقول مفتخرا بهم:

---

(١) ابن عساكر ج١ / ص١٧٤.

(٢) الطبرى ج٥ / ٢٣٢٨.

وآل منا الفارس الحذرة حين لقيناه دوين المنظرة
بكل قباء لحوق مضمرة بمثلها يهزم جمع الكفرة[1]

وهذا طليحة بن خويلد، يضرب الجالينوس فيقد مغفره، فيقول:

أنا ضربت الجالينوس ضربه حين جهاد الخيل وسط الكبه[2]

وهذه امرأة رجل يدعى حنبص بن الأحوص، ترى فعال زوجها، فتتمنى أن يكون قومها جميعا مثله فتقول:

يا ليت قومى كلهم حنابصة[3]

وهذا رجل فى جيش البراء بن عازب، فى غزاة قزوين، يمجد بطولة قائده وكتيبته، وما لاقت من صنوف العنت والمشاق فيقول:

قد تعلم الديلم إذ تحارب لما أتى فى جيشه ابن عازب
بأن ظن المشركين كاذب فكم قطعنا فى دجى الغياهب
من جبل وعرٍ ومن سباسب[4]

هكذا ينطبع رجز الجهاد بنفس الطابع الذى رأيناه لشعر الجهاد، فيختلف عن الرجز الجاهلى، الذى كان يقوم على إثارة النعرات والتحميس للثأر والانتقام، فإذا هو أداة لتعبئة الروح المعنوية للمجاهدين فى سبيل الله تعبئة روحية. فهذا الفارس تبلغ روحه الحلقوم فى سبيل الله. وهذا يفخر بكتيبته التى يهزم بمثلها جمع الكفرة. وآخر يعلن أن ظن المشركين كاذب إذ جاءهم المسلمون كأقدارهم.

والموضوع الثانى من الموضوعات القديمة فى شعر الفتح ــ هو الرثاء، وهو غرض مستقل من أغراض شعر الفتح مقصود لذاته، وهو كشعر الجهاد تمجيد لبطولة الذين

(١) البلاذرى / ٢٥٠.
(٢) البلاذرى / ٢٦٠.
(٣) الإصابة ج٢ ص٩٥.
(٤) البلاذرى / ٣٢٢.

استشهدوا، وإشادة بفعالهم، ومواقفهم، والبكاء عليهم، وأفتدائهم، وتعداد مآثرهم. وهو وإن كان يتفق مع الرثاء الجاهلى فيما يشيع فيه من الحزن والأسى، وما يغلب عليه من استشعار الأسف والجزع على الفقيد، فإنه يختلف عنه فيما يمتلئ به من روح التسليم بالقضاء، والامتثال لإرادة الله وحسن تقبلها، وتمثل ما أعده الله للشهداء من جزاء عظيم، كهذا الاستسلام الذى يبدو فى رثاء أبى عامر بن غيلان لولده، الذى خرج غازيا وأدركه طاعون عمواس، إذ يترجم الآية الكريمة ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦)﴾ [الرحمن] فى قوله:

عينى تجود بدمعها الهتان ... سحًّا وتبكى فارس الفرسان

لو أستطيع جعلت منى عامرا ... تحت الضلوع وكل حى فان(١)

وكهذا التسليم الذى يشيع فى رثاء أبى الحباب ـ ذريح بن الحارث ـ لولده الذى استشهد فى قتال الفرس، فيشبهه بالشهاب الذى خمد، ويشيد ببلائه فى القتال، وانعدام نظيره فى الفرسان إلى يوم الدين، لكنه يعود إلى اليقين بأن لكل أجل كتاب فيقول:

أبغى الحباب فى الجهاد ولا أرى ... له شبهها ما دام لله ساجد

وكان الحباب كالشهاب حياته ... وكل شهاب لا محالة خامد(٢)

ويتجلى هذا التسليم بقضاء الله فى صورة رائعة فى قصيدة أبى ذؤيب الهذلى، الذى فقد بنيه الخمسة فى طاعون بمصر، إذ يبكيهم بكاء مرا، مظهرا أسفه البالغ على فقدهم، ويذكر حمايته لهم ودفاعه عنهم، ولكنه لم يجد شيئا أمام مناياهم التى حمت، فيقول:

أمن المنون وريبه تتوجع ... والدهر ليس بمعتب من يجزع

أودى بنىّ وأعقبونى حسرةً ... بعد الرقاد وعبرة لا تقلع

فغبرت بعدهم بعيش ناصب ... وإخال أنى لاحق مستتبع

ولقد حرصت بأن أدافعَ عنهمُ ... فإذا المنية أقبلت لا تُدفَع

(١) الإصابة ج٣/ ١٤.

(٢) الإصابة ج٢ ص١٨١.

وإذا المنيــة أنشــبت أظفــارَها ... ألفــيتَ كلَّ تميــمــةٍ لا تنـفع

لا بد من تـلف مـقيـم فـانـتظر ... فـبأرض قـومك أم بأخرى المصـرع

ولقـــد أرى أن البكاء سـفـــاهةٌ ... ولســوف يولـع بالبكا مـن يفـجَع

ولتـــأتينّ عـليـك يوم مـــرة ... يبكـى عليك مـقنعـا لا تسـمع

وتجلدى للشــامتــين أُريـهمُ ... أَنىِّ لِريْبِ الـدهْر لا أتضَـعْـضَع[1]

فمدافعة المنون عبث، والجزع أمـام صروف الدهر لا قيمة له، وعلام يجزع وهو لاحق بهم لا مـحالة، فليس أحـد بخالد، وقـد حاول الدفـاع عنهم وضاعت جـهوده سدى، فالمنايا لا تدفع، ولكل إنسان مصـرع لا يعلم زمانه ولا مكانه والبكاء سفاهة، إذ لا قيمة له، والباكى سوف يبكى عليه يوما ما.

وفضلا عن هذه الروح الإسـلامية نجد اعتـزازا كبيرا بما أعده الـله للشهداء من ثواب وأجر، كما فى قول من رثى شهداء المسلمين الذين دفنوا فى القادسية بمشرق، إذ قال:

جـزى الله أقوامـا بجنب مشـرّق ... غداة دعا الرحمـن من كان داعيا

جنانا من الـفـردوس والمنزل الذى ... يحل به م الخيـر من كان باقـيا[2]

ولعلنا لا نجد فى الشعـر العربى قصائد كثـيرة تشبه القصيـدة الرائعة التى رثى بها كثيـر بن الغريزة النهشلى الذى كان بجيش الأقـرع بن حابس التميمى شهـداء جوزجان والطالقان، ورثى بها نفسه رثاء رائعا، يذكرنا بقـصيدة مالك بن الريب فى فتح خراسان، وهى تجرى على هذا النمط:

سقى مزن السحـاب إذ استقلت ... مـصـارع فـتـيـة بالجـوزجـان

إلى القصرين من رسـتاق خوطٍ ... أقــادهـم هناك الأقـــرعـــان

ومـا بى أن أكـــون جـزعت إلا ... حنين القـلب للبـرق اليـمـانى

(١) ديوان الهذليين ج١/ ص١، الاستيعاب ، ص٦٦٦، ياقوت ج٤ ص٥٣٨.

(٢) ياقوت ج٤ ص٥٣٩.

ومحبور برؤيتنا يرجى الـ ... ـلقاء ولن أراه ولن يرانى
ورب أخٍ أصاب الموت قلبى ... بكيت ولو نعيت له بكانى
دعانى دعوة والخيل تردى ... فما أدرى باسمى أم كنانى
فكان إجابتى إياه أنى ... عطفت عليه خوّار العنان
وأى فتى إذا ما مت تدعو ... يطرف عنك غاشية السنان
فإن أهلك فلم أك ذا صدوفٍ ... عن الأقران فى الحرب العوان
ولم أدرج لأطرق عرس جارى ... ولم أجعل على قومى لسانى
ولكنى إذا ما هايجونى ... منيع الجار مرتفع البنان
ويكرهنى إذا استبسلت قرنى ... وأقضى واحدا ما قد قضانى
فلا تستبعدا يومى فإنى ... سأوشك مرة أن تفقدانى
ويدركنى الذى لا بد منه ... وإن أشفقت من خوف الجنان
وتبكينى نوائح معولات ... تركن بدار معترك الزمان
حبائس بالعراق منهنهات ... سواجى الطرف كالبقر الهجان
أعاذلتى من لوم: دعانى ... وللرشد المبين فاهديانى
وعاذلتى صوتكما قريب ... ونفعكما بعيد الخير.. وان
فردا الموت عنى إن أتانى ... ولا وأبيكما لا تفعلان(١)

فالشاعر جزع على هؤلاء الشهداء، الذين لاقوا مصارعهم فى هذه البلاد النائية، وزاد فى جزعه أيضا أنه يحن وقد رأى ما رأى إلى موطنه وإلى من خلفهن فى العراق، وهو يشعر بأنه لن يلقاهن، ويتضاعف حنينه وفزعه عندما يقابل بين ما حدث لهؤلاء الفتيان وما يمكن أن يحدث له هو الآخر، فليس هناك فرق بين أن ينعى إليه أخ أو أن ينعى هو إليه. وماذا يمكن أن يفيده الجزع وقد قام بواجبه على أتم وجه، وأدى ما

(١) أغانى دار الكتب ج١١ ص٢٧٨ - ٢٧٩.

استطاع، وقدم كل ما يملك لهذا الأخ الذى استنجد به فى المعركة فى بسالة لا نظير لها، فلا ضير إذا هلك، فهو شجاع لا يجبن عن ملاقاة الأقران، عفيف لم يمتد طرفه إلى عرس جاره، ولم يؤذ أحدا من قومه، وهو منيع الجار، لا يقبل الضيم، وإذا أهيج يكرهه خصمه إذا لاقاه لصلابته وفتكه، وهو الآن يشعر بدنو أجله، ويحس أنه عما قريب مفتقد، فسوف يدركه الموت الذى لا مفر منه، ولن يشفع له حبه الحياة، وآنذاك سوف تعول نائحات ساجيات الطرف عليه فى العراق.

ألم يأن لعاذلتيه أن تكفا عن لومه؟ وأن تهدياه إلى الطريق القويم إن استطاعتا؟ وأن تردا عنه الموت لو تأتى لهما؟ ولكن هذا محال.

وبهذا الاستبطان والتأمل الذاتى فلسف الشاعر موقفه من الموت، وجعل من رثاء شهداء الطالقان موضوعا إنسانيا كبيرا، وإن شاع فى نهاية هذه الفلسفة نفس الروح الإسلامية، فى التسليم بالقدر والاستسلام للقضاء. وشاعت نفس هذه المعانى فى الرجز، فطبعته طوابع إسلامية: كالإيمان بأحقية الموت، والثقة بالله، والتسليم بقضائه.

فهذا أخو بنى كاهل يرثى نفسه وينعيها إلى أخيه، ويدعوه إلى أن يصبر فى لقاء عدوه، وكأنه يستخلفه مكانه، فيقول:

وجاشت النفس على التراق صبرا عفاق إنه الفراق[1]

وهذا الأعور بن قطبة: يستشعر شعورين متضاربين من الغبطة والحزن فى لحظة واحدة يوم أغواث، فقد قتل أخوه قائدا من قواد الفرس، ولكن هذا القائد طعنه قبل أن يسقط، فهو فرح لأن أخاه أبلى هذا البلاء، ولكنه حزين لفقد أخيه البطل فيقول:

لم أر يوما كان أحلى وأمر من يوم أغواث إذ افتر الثغر

من غير ضحك كان أسوى وأبر[2]

وهكذا نجد هذين الموضوعين القديمين يتطوران فى شعر الفتح، إذ يتطور الفخر القبلى الذى يقوم على التفاخر بالأحساب والعصبيات والنعرات إلى شعر يفخر فيه

(١) الطبرى ج٥ ص٢٣٢٨.
(٢) مروج الذهب ج٢ ص٢٠٦.

المجاهد ببلائه وبطولته فى سبيل فكرة الجهاد من أجل العقيدة التى يؤمن بها، ويتعدى ذلك إلى استشعار الشاعر وجدانا جماعيا لجماعة المسلمين يصدر عنه فى شعره، سواء تغنى به أو تغنى بفرديته كعضو فى إطاره، ويشيع فى هذا الموضوع كثير من معانى الفداء والإيمان بنصر الله للمؤمنين على أعدائهم الكافرين، كما يشيع فيه إخلاص للفكرة، ورفض لكل شىء فى الدنيا يشغل عنها. وقد قاسم الرجز الشعر هذه المعانى أيضا، وتطور شعر الرثاء الجاهلى هو الآخر، من إشادة بالفقيد وكرمه وشرفه والجزع عليه إلى الإيمان بالموت ووجوبه والتسليم به، والصبر على قضاء الله، واستشعار ما أعد للمجاهدين والشهداء فى سبيله من الأجر والثواب، فضلا عن الإشادة ببطولة الشهيد، وما قدم فى سبيل الله من تضحيات، وشارك الرجز فى هذه المعانى ذاتها، وإن كان ذلك فى صورة ضيقة، إذ إن نصوص الرجز فى الرثاء قليلة جدا.

وإلى جانب هذين الموضوعين التقليديين استجدت موضوعات أخرى سجلها شعر الفتوح، وآثرنا أن نفردها وحدها، لأنها كانت نتيجة لاحتكاك الفاتحين ببيئات جديدة. وقبل أن نعرض لها نرى أن نعرض للون جديد من ألوان الرثاء استجد فى الشعر الذى قيل فى الفتوح، وهو لون طريف لم يعرفه الشعر العربى من قبل، ذلك أن بعض المجاهدين راحوا يَرْثُون أعضاءهم وأشلاءهم التى فقدوها فى المعارك فى صورة رائعة، تمتلئ بالشجاعة والبسالة وإظهار الشدة والاحتمال والبأس، واحتساب هذه الأعضاء والفخر ببذلها فى سبيل الله، والاستهانة بفقدها أمام ما أفقدت العدو من أرواح وأعضاء. ومن بين هذه الصور الرائعة التى يصور فيها عبدالله بن سبرة الجرشى احتسابه يده عند الله، مشيدا بما فعلته هذه اليد فى سبيله، فقد قتلت أرطبون الروم، فى مبارزة فقدت فيها يوم فلطاس فقال:

ويل ام جارٍ غداة الروع فارقنى ... أهون على به إذ بان فانقطعا
يمنى يدى غدت منى مفارقة ... لم أستطع يوم فلطاس لها تبعا
وما ضننت عليها أن أصاحبها ... ولقد حرصت على أن نستريح معا
وقائل غاب عن شأنى وقائلة ... هلا اجتنبت عدو الله إذ صرعا
وكيف أتركه يسعى بمنصله ... نحوى وأعجز عنه بعدما وقعا

ما كان ذلك يوم الروع من خلقى ولو تقارب منى الموت فاكتنعا
يمشى إلى مستميت مثله بطلٍ حتى إذا أمكنا سيفيهما قطعا
حاسيته الموت حتى اشتف آخره فما استكان لما لاقى ولا جزعا
فإن يكن أرطبون الروم قطعها فقد تركت بها أوصاله قطعا
وإن يكن أرطبون الروم قطعها فإن فيها بحمد الله منتفعا
بنانتين وجرموزا أقيم بها صدر القناة إذا ما آنسوا فزعا(١)

فهو يرثى يده، وكأنها إنسان عزيز فقده وفارقه، وقد حرص على أن يتبعها، ولكنه لم يستطع، لا ضنا بنفسه على الموت ولا جبنا، كهؤلاء الذين يلومونه على تعرضه للبطل الرومى، ويتمنون له أن يتجنبه، وهو يسعى بسيفه نحوه، فهل يعجز بعدما كان من بروزه ويرتد مذعورا أمامه؟ وهل يليق هذا ببطل مثله؟ وأمكنا سيفيهما، وراح الشاعر يسقيه كأس الموت حتى آخره، وثبت البطل، ولم يجزع حتى صرع قرنه وفقد يده.

ولكن هذه اليد التى قُطِعت قد قَطَعت أوصال خصمه، وإن يكن خصمه قطعها، فإنه لم يفسدها كلها فقد بقيت فيها منافع، فله بنانتان وجرموز تمكنه من الحفاظ على المسلمين، حينما يأنسون جزعا.

وبهذه الصورة الرائعة وأمثالها سجل الشعراء والرجاز رثاءهم لأعضائهم التى فقدوا، فهذا علباء بن جحش العجلى، يطعنه فارسى فى بطنه فيبقرها ويخرج أمعاءه، فإذا به ثابت الجنان يدفع بأمعائه إلى بطنه، وهو يرتجز بكلماته الأخيرة:

أرجو بها من ربنا ثوابا قد كنت ممن أحسن الضرابا(٢)

وهذا أخو بنى كاهل، وقد قطع أحد فرسان العدو رجله، فراح يحتسبها عند الله، مستهينا بها قائلا:

---

(١) الإصابة ج٥ ص٦٠، ٩٢، الطبرى ج٥ ص٢٤١٠.
(٢) الطبرى ج٥ ص٢٣١٠.

صبرا عفاق إنها الأساوره ... صبرا ولا تغررك رجل نادره[1]

وهذا حياض بن قيس القشيرى، يرثى رجله، حتى ليعرف بناشد رجله، فيفخر به سوار بن أوفى فى قوله:

ومنا ابن عتاب وناشد رجله ... ومنا الذى أدى إلى الحى حاجبا[2]

وكان حياض هذا: قد ضربه أحد الروم فى اليرموك فقطع رجله، فقال متوهما الروم أساورة يخاطب فرسه:

أقدم حذام إنها الأساورة ... ولا تغرنك رجل نادره

أنا القشيرى أخو المهاجرة ... أضرب بالسيف رءوس الكافرة[3]

وذكر بعض الشعراء مثل هذا مما فعلوه بالعدو. فهذا علقمة بن الأرث، يتحدث عن الأكف والأسواق التى أطاحها المسلمون من الروم فى يوم فحل فيقول:

وكم من قتيل أرهقته سيوفنا ... كفاحا وكف قد أطيحت وأسوق[4]

وجلى أن هذا اللون يغلب عليه طابع إسلامى بصورة ظاهرة، فى معانيه وألفاظه وما يشيع فيه من روح الفداء والتضحية والاحتساب، فى مقابل ما أعده الله للمجاهدين من حسن الثواب.

وخلاصة القول: أن شعر الجهاد فارق الحماسة الجاهلية، فى التخفف من كل ما حظره الإسلام من الغزل المحسوس، والتغنى باللهو والعبث والشراب ولم يعد تفاخرا بالشجاعة فى الثأر والانتقام والإغارة، وإنما أصبح تفاخرا بالبطولة، والتفانى فى الجهاد فى سبيل الله، الذى يظهر فيه إيمان الشاعر بالعقيدة التى دفع عنها إيمانا عميقا، يستشرف فيه الشاعر مغانم أخروية وعده الله بها، ويصدر فيه عن روح الجماعة الإسلامية، التى كادت تذوب داخلها القبليات والنعرات الجاهلية، كما يصدر فيه عن نفسه كعضو فى هذه الجماعة واضح الشخصية متميزها، يؤدى واجبا يشعر بقداسته ويؤمن بدواعيه.

---

(١) الطبرى ج٥ ص٢٣٢٩.

(٢)، (٣) الإصابة ج٢ ص٦٨.

(٤) الإصابة ج٥ ص١١١.

وكذلك اختلف شعر الرثاء فى الفتوح عن الرثاء التقليدى، فيما شاع فيه من آثار التعاليم الدينية ومظاهر الإيمان بالموت والاستبشار بالجنة، فضلا عن هذا اللون الجديد من الرثاء الذى بكى فيه المسلمون أشلاءهم بكاء جديدا، يظهرون فيه الاستهانة بما فقدوا فى سبيل الله. ويلف الرثاء بلونيه التقليدى والمستحدث إطار إسلامى جلى، وإشارات واضحة إلى الجنة والثواب والأجر الذى أعده الله للشهداء والمجاهدين.

٣ـ موضوعات جديدة

هذه الموضوعات الجديدة التى عبر عنها شعر الفتح نتيجة طبيعية لحياة الفاتحين فى بيئة جديدة عنهم وبعيدة عن أوطانهم. وأول هذه الموضوعات ما نسميه بشعر الحنين، ونعنى به ذلك الشعر الذى يعبر عن أشواق الشاعر التى كانت تملأ جوانبه، وعن المواجع التى كانت تلذع كبده، نتيجة بعده عن وطنه، عندما يتذكر مرابعه الأولى فيحن إليها، ويذكر أهله الذين فارقهم، ويتمنى لقاءهم فيشكو بعده واغترابه عنهم، كهذا المجاهد الذى يشكو غربته إلى قمرية خالها غريبة مثله فى مرو الشاهجان فقال:

أقمرية الوادى التى خان إلفها ... من الدهر أحداث أتت وخطوب

تعالى أطارحك البكاء فإننا ... كلانا بمرو الشاهجان غريب(١)

وكما يسكب الشاعر الغريب عواطفه على الطيور ويشكو إليها همومه يفزع إلى طبيعة دياره التى خلفها وراءه، عندما يعانى من قسوة أجواء هذه المناطق النائية وبردها وثلجها، فيتحسر على دفء موطنه، كهذا الشاعر الذى راح يذم جو مرو، ويتمنى جو العراق فى بره وبحره، إذ يقول:

وأرى بمرو الشاهجان تنكرت ... أرض تتابع ثلجها المذرور

أسفى على بر العراق وبحره ... إن الفؤاد بشجوه معذور(٢)

وإن كان هذا الشاعر يذم برد مرو شوقا إلى دفء العراق، فإن شاعرا آخر من الفاتحين يضيق بقيظ بعض المناطق البعيدة الأخرى عن وطنه، ويتنسم برد رياح نجد،

(١) ياقوت ج٢ ص٥١٠.

(٢) نفس المرجع.

obeikandi.com

وطيب مناخه، ضائقا بغربته بين أناس ليسوا من قومه ولا من عشيرته ولا من لسانه، فيقول:

أتبكى على نجد وريا ولن ترى — بعينيك ريا ما حييت ولا نجدا
ولا مشرفا ما عشت أقفار وجرة — ولا واطئا من تربهن ثرى جعدا
ولا واجدا ريح الخزامى تسوقها — رياح الصبا تعلو دكادك أو وهدا
تبدلت من ريا وجارات بيتها — قرى نبطيات يسمينني مردا
ألا أيها البرق الذى بات يرتقى — ويجلو دجى الظلماء ذكرتنى نجدا
ألم تر أن الليل يقصر طوله — بنجد وتزداد الرياح به بردا؟[1]

وأخذ الشعور بالغربة على الفاتحين يتصور صورا مختلفة، فنجد يقصر الليل فيه وتزداد رياحه بردا، ولكنه فى غربته يزداد طولا وقيظا.

وهذا ورد بن الورد فى رامهرمز يحن إلى حبيبته ودياره فى بنى كعب، فيصور فؤاده مصعدا مع المصعدين إلى أرض الوطن، ولا يجد خيرا فى الدنيا إذا لم يزر فيها حبيبه فيقول:

أمغتربا أصبحت فى رامهرمز — ألا كل كعبى هناك غريب
إذا راح ركب مصعدون فقلبه — مع المصعدين الرائحين جنيب
وإن القليب الفرد من أيمن الحمى — إلى وإن لم آته لحبيب
ولا خير فى الدنيا إذا لم تزر بها — حبيبا ولم يطرب إليك حبيب[2]

وراح بعض الشعراء يكون حظهم الذى ألقى بهم إلى هذه المناطق النائية، حتى ليضيقون بالقتال والحرب فيها، ويصرحون بهذا فى شعرهم، كما فعل هذا الجندى الذى يقول:

---

(١) ياقوت ج٤ ص٩٠٦.
(٢) ياقوت ج٢ / ٧٣٨.

تبـــدلـت من نجـــد وممن يحـله ... مـحله جند مـا الأعـاريب والجند؟

وأصبحت فى أرض الجنود وقد أرى ... زمـانى بأرض لا يقـال لهـا بند[1]

ويستبد الحنين بالشاعر فينظر ناحـية نجد، برغم أنه لا يرى شيئا، ولكنه ينظر حنينا إليها وإلى خيامها التى يقصر عنها الطرف وبرغم ألا نفع فى نظره فلايزال ينظر، ثم تجرى عبـراته تتحدر هكذا كل يوم، وهكذا لا يسـتريح قلبه، فـإما مجـاهد فى غزاة، أو ناء يتذكر يقول:

أكـرر طـرفى نحـو نجـــد وإننى ... برغـمى وإن لم يدرك الطرف أنظر

حنيـنا إلى أرض كـــأن ترابهـــا ... إذا أمطرت عــود ومـسك وعنبـر

بلاد كـأن الأقـحـــوان بروضـه ... ونور الأقـاحى وشى برد مـجـيـر

أحن إلى أرض الحجـاز وحاجتى ... خيـام بنجد دونهـا الطرف يقـصر

ومـا نظرى من نحـو نجـد بنافع ... أجـل لا، ولكـنى إلـى ذاك أنظـر

أفى كل يـوم نظرة ثم عـبـــرة ... لعـينك مـجـرى مـائهـا يتـحـدر

متى يسـتريح القلب إما مـجاوز ... بحـــربٍ وإمـا نـازح يتـذكـــر[2]

وفى مثل هذه الظروف القاسية الموحشة يجد الشاعر المجاهد الغريب نفسه بحاجة إلى أن يهرب إلى الطبيعة يبثها آلامه وأحزانه، ولا يزال الشعر الذى قيل فى نخلة القادسية يصور لنا عاطفة الإنسان المأزوم نحو الطبيعة ولجـوئه إليها، وبخاصة لو استشعر إلى جانب مشاعر الاغتراب والوحشة قلقا يتهدد حياته، أو عندما يهاجمه الإحساس بدنو أجله.

كان ذلك يوم عـماس، وقد قـتل من المسلمين ألفـان وخمـسمائة، وكـان عدد الجرحى كـبيـرا، وأخذ المسلمـون فى دفن القتلى بمشـرق، ودفعوا بالجـرحى إلى عناية النساء، وكان بين موقع المعركة مما يلى القادسـية وبين حصن العذيب نخلة وحيدة، ليس حولها شىء من الزرع، وكان المسـلمون إذا حملوا الجريح مروا به عليها، فـإذا كان فيه

(١) ياقوت ج٤ ص٧٢٩.

(٢) ياقوت ج٤ /٧٤٧.

obeikandi.com

تميز نظر إليها طويلا، ثم قال لحامله: أرحنى تحت ظل هذه النخلة، فيرتاح تحتها برهة، يترنم فيها ببيت من الشعر يتمنى فيه السلامة لها، وكأنه يخاطب نفسه فيها، إذ لم يجد أهله وأحباءه حوله يقولون له هذه الكلمة فيخففون بها بعض ما به من ألم. ويذكر وحدة النخلة، وكأنه يعبر بذلك عن غربته، مثل هذه النخلة التى لا يجاورها نخل فيقول:

ألا فاسلمى يا نخلة بين قادس وبين العذيب لا يجاورك النخل

فإذا بجريح آخر يقول:

ألا يا اسلمى يا نخلة بين جرعة يجاورك الجمان دونك والرغل

فإذا بثالث من تيم الله يدعى ربعيا يقول:

أيا نخلة الجرعاء يا جرعة العدا سقتك الغوادى والغيوث الهواطل

وحمل إليها الأعور بن قطبة جريحا ــ فيمن حمل ــ فقال:

أيا نخلة الركبان لازلت فانضرى ولازال فى أكناف جرعائك النخل

فيرد عوف بن مالك التميمى:

أيا نخلة دون العذيب بتلعة سقيت الغوادى المدجنات من النخل(١)

وموضوع الحنين على هذه الصورة باب رائع من أبواب الشعر الإسلامى، ذلك أنه يلتف فى نطاق وجدانى رفيق، تنسكب فيه أعمق المشاعر العاطفية فى تدفق وحرارة وصدق.

ونحن لا نعرف لهذا الشعر شبيها يقابله فى شعر الجاهلية على كثرة ما كان من ظعنهم ورحيلهم إلا ما كان يعرف من بكاء الأطلال. وفى اعتقادنا: أن وجود هذا الضرب من الشعر فى الفتوح يعلل اختفاء المقدمات من هذا الشعر، إلى جانب ما أسلفناه من أسباب فى تعليل هذه الظاهرة. وربما يعلل وجود هذا اللون أيضا: ما أخذ يشيع بعد استقرار المجتمع الإسلامى وبسط سلطانه على الأمصار المفتوحة من غزل رقيق عذرى، متطور عن هذا اللون من شعر الحنين الحزين الشجى.

(١) المسعودى، مروج الذهب ج٢ ص٢٠٩، الطبرى ج٥ ٢٣١٧، ٢٣١٨.

وللتدليل على ما نذهب إليه بصدد حلول قصائد الحنين هذه محل المقدمة الطللية، الذى استوعب هذا اللون كل ما كان يسكب فيها من عواطف. نرى أنه لا ضير فى أن تكون هذه الأبيات مطلعا لإحدى القصائد التقليدية وهى أبيات لأحد الفاتحين النازحين يقول فيها:

خليلى هل بالشام عين حزينة ... تبكى على نجد لعلى أعينها
وهل بائع نفسا بنفس أو الأسى ... إليها فأخلاها بذاك حنينها
وأسلمنها الباكون إلا حمامة ... مطوقة قد بان عنها قرينها
تجاوبها أخرى على خيزرانة ... يكاد يدنيها من الأرض لينها
نظرت بعينى مؤنسين فلم أكد ... أرى من سهيل نظرة أستبينها
فكذبت نفسى ثم راجعت نظرة ... فهيج لى شوقا لنجد يقينها(١)

فهل هناك فرق بين هذه الأبيات وأية مقدمة طللية؟ وهل هناك فرق بينها وبين ما نراه بعد عند العذريين من آلام الشوق والتبريح؟

وفى الوقت الذى نجد فيه الرجز يقاسم الشعر فى الموضوعات القديمة المتطورة كشعر الجهاد والرثاء نجده لا يستطيع أن يشاركه فى شعر الحنين، إذ هو اللون الوحيد من ألوان الشعر فى الفتوح، الذى لم يكن للرجز فيه نصيب من التعبير. وربما يرجع هذا إلى أن معانى الحنين لا يمكن نظمها إلا فى ظروف وجدانية خاصة، ولحظات غنائية حالمة ومتأنية، مما يخالف طبيعة الرجز، الذى غلبت عليه طبيعة الاندفاع والانفعال العنيف اللاهب، نتيجة لقيامه بدور التحميس والحث فى ظروف القتال.

وحظيت المشاهد الغريبة التى عاينها المسلمون لأول عهدهم بها فى مناطق الفتح النائية، وبخاصة فى الجناح الشرقى لفارس بغير قليل من عناية الشعراء الذين راحوا يصورون انطباعاتهم بهذه المشاهد وانعكاساتها على أنفسهم. وقد حظيت طبيعة هذه البلدان التى تختلف عن طبيعة بلاد العرب باهتمام الشعراء بها وتصويرها، والتعبير عن

---

(١) ياقوت ج٤ ص٧٤٨.

إعجابهم بهـا أو الضيق منها، وبخاصة أحوال الجـو وبرده، الذى عانى منه المسلمون فى حصارهـم بعض المناطق فى مكران وما ماثلهـا، كما يبدو فى قـول الحكم التغلبى الذى افتتحها، إذ يقول:

لقـد شبع الأرامل غـيـر فخـر ... بفـىء جـــاءهـم من مـكران

أتاهم بعـد مـسـغـبـة وجـهـد ... وقد صفر الشـتاء من الدخان[1]

وهذا أحد الفاتحين يضيق ببـرودة الجو فى مرو، ويعجب لتنكر الأرض التى تتابع ثلجها، ويشفق على أهلها الذين يقضون الشتاء مقرورين، دائما محتمين بأثواب يدسون أيديهم فيها لشدة البرد، كأنهم أسرى فيقول:

وأرى بمرو الشـاهجـــان تنكرت ... أرض تتـــابع ثلجـهـــا المذرور

إذ لا ترى ذا برة مـــشـهـــورة ... إلا تخـــال كـــأنه مـــقـــرور

كلـتـــــا يـديه لا تـزايل ثـوبه ... كل الشـتـاء كـأنه مـأسـور[2]

وفى نفس الوقت عبر بعض الفاتحين عن إعجابهم بطبـيعة البلدان التى افتتحوها، وتغنوا بجمالها إلى أهليهم فى شبه الجزيرة، كما يبدو فى شعر أبى بجيد الأسود بن قطبة التى يتغنى فيها بريف الرى، فيقول:

رضـينا بريـف الرى والرى بلدة ... لهـا زينة فى عـيـشهـا المتـواتر

لهـــا نشــز فى كل آخـــر ليلة ... تذكر أعـراس الملوك الأكابر[3]

وهذا سواد بن قحطبة يتغنى بجمال الطبيعة فى جرجان، فيقول:

ألا أبلغ أسيدا إن عرضت بأننا ... بجرجان فى خضر الرياض النواضر[4]

ولعل أشد هذه المشاهد لفتا للعرب فى أول نزولهم بلاد الفرس الفيلة، التى لاقوا منهـا شدة فـى بعض معـاركـهم مع الديلم، وبخـاصة يوم بابـل، ويوم الجسـر، وفى

(١) ياقوت ج٤ ص٦١٢.

(٢) ياقوت ج٤ ص٥١٠.

(٣) ياقوت ج٢ ص٨٩٥.

(٤) ياقوت ج٢ ص٨١٥.

القادسية، وقد دار ذكرها فى شعر عدد كبير من شعراء المسلمين ذكرها ربيعة بن مقروم الضبى، وفخر برؤيتها وشهود معاركها، فقال:

ودخلت أبنية الملوك عليهم ولشر قول المرء ما لم يفعل
وشهدت معركة الفيول وحولها أبناء فارس بيضها كالأعبل
متسربلى حلق الحديد.. كأنهم جرب مقارفة عنية مهمل(1)

وأشار عبدة بن الطبيب إليها فى لاميته فقال:

حلت خويلة فى دار مجاورة أهل المدينة فيها الديك والفيل(2)

وصور الشعر ما كان يحدث لخيول المسلمين من الاضطراب بسبب الفيول، حتى كاد المسلمون أن يخسروا المعركة يوم بابل، كما خسروها يوم الجسر. وفى القادسية: فعلت الفيلة فعلها فى الخيل، حتى ليقول أبو محجن الثقفى:

وما رمت حتى خرقوا بسلاحهم إهابى وجادت بالدماء الأباجل
وحتى رأيت مهرتى مسزوئرة لدى الفيل يدمى نحرها والشواكل(3)

وظل هذا حال الفيلة وفعلها بالمسلمين حتى عرفوا مقاتلها. وكان من الذين قطعوا مشافر الفيلة: القعقاع بن عمرو، الذى قطع مشفر الفيل الأعظم يوم القادسية، وفقأ عينه برمحه وقال:

فإن كنت قاتلت العدو فللته وإنى لألقى فى الحروب الدواهيا
فيولا أراها كالبيوت مغيرة أسملُ أعيانا لها ومآقيا(4)

وأشاد سعد بن أبى وقاص ببلاء الذين تعرضوا للفيلة من المسلمين فأراحوا إخوانهم منها بعد أن قتلت فى بنى أسد خمسمائة، فقال يشيد ببطولة القعقاع، وحمال الوالبى:

---

(1) الحيوان ج٧ / ٢٦٢ والمفضليات ص٢٦٨ ، والأغانى ج١٩ ، ص٩٣ الخزانة ج٣ ص٥٦٦.
(2) المفضليات ٢٦٨ والأغانى ج١٧ ص١٦٣ والإصابة ج٥ ص١٠١.
(3) الأغانى ج٢١ ص١٤٥.
(4) الطبرى ج٥ ص٢٣٢٧.

فـقـد لقـيت خيـولهم خـيـولا		وقد وقع الفـوارس فى الضراب
وقـد دلفت بعـرصـتهم فـيـول		كـأن زهاءهـا إبل جـراب
فلولا جَـمْع قعـقاع بن عـمرو		وحـمـال للجّـوا فى الكذاب
هم منعـوا جـمـوعكـم بطعن		وضـرب مـثل تفـتيق الإهاب
ولولا ذاك ألفـيـتم رعـاعـا		تشل جمـوعكم مثل الذباب(١)

وكمـا ضاق المسلمـون بالفيلة ضـاقوا بما لم يألفـوه، من الحشرات والأوبئة التى تعرضوا لإيذائها فى هذه البيئات، فشكوا منها، كما يبدو فى هذا الشعر الذى يشكو فيه صاحـبه من الذباب الذى يؤذى ناقتـه ويردها عن الماء فى كربلاء عند التقـاء كتيبـة خالد بجند عياض حيث يقول:

لقد حـبست فى كـربلاء مطيتى		وفى العين حتى عاد غثا سمينها
إذا رحلت من مبـرك رجعت له		لعـمـرو أبيـهـا إننى لا أهينهـا
ويمنعـهـا من ماء كل شـريعـة		رفاق من الذبان زرق عـيونها(٢)

ولا ريب فى أن الشعر الذى صور طاعون عمواس وأثره قد نجح فى رسم صورة مؤثرة للمأساة التى أودت بكثير من المسلمين، الذين اجتمع عليهم الطعن والطاعون فى وقت واحد. يقول المهاجر بن خالد بن الوليد وقـد فقد أربعين من بنى عمومته فى هذا الطاعون:

أفنى بـنى ريطة فـرسـانـهم		عشرون لم يقصص لهم شارب
ومن بنى أعـمـامـهم مـثلهم		لمثل هـذا يعـجب الـعـاجب
طعـن وطاعـون منـايـاهم		ذلك مـا خـط لنا الكـاتب(٣)

---

(١) الطبرى ج٥ ص٢٣٥٨ و ٢٣٦٢.
(٢) الطبرى ج٤ ص٢٠٥٩.
(٣) الإصابة ج٦ ص٩٦.

obeikandl.com

وفى نفس المعنى يقول عبدالله بن سبرة الجرشى:

إذن أقبل الطعن فالطاعون يرصدنى   كيف التقاء على طعن وطاعون(١)

وكان ركوب البحر حدثا كبيرا سجله الشعراء وأشادوا به، وأكدوا فى شعرهم أن الله قد ذلله لهم وبشروا بما أعده الله لمن يعبر فى طاعته. يقول عفيف بن المنذر التميمى وقد غزا مع العلاء بن الحضرمى فارس من البحرين فى وقعة طاووس:

ألم تر أن الله ذلل بحره   وأنزل بالكفار إحدى الجلائل

دعونا الذى شق البحار فجاءنا   بأعظم من فلق البحار الأوائل(٢)

وأخذ المسلمون يعرفون بعض ألوان المآكل والمشارب الفارسية ويذكرونها فى شعرهم. إذ إن أبا عبيد بن مسعود الثقفى ـ شهيد الجسر ـ بعد أن هزم الفرس فى السقّاطية بكسكر نزل بقرى باروسما، حيث خف إليه الفرس يصالحونه، وصنع له «فروخ» و«فرنداذ» من رؤساء الدهاقين طعاما قدموه له، ولكنه رفض أن يطعمه دون جنده، فأخبروه أنهم يطعمون فى نفس الوقت.فأكل، ولما عاد إلى جنده سألهم ماذا كان طعامهم؟ فأخبروه بما جاءهم، فدعاهم ليعرفوا ألوان الطعام التى قدمت إليه. من قرو ونجم وجوزل وشواء وخردل، فقال عاصم بن عمرو التميمى:

إن تك ذا قرو ونجم وجوزل   فعند ابن فروخ شواء وخردل

وقرو رقاق كالصحائف طويت   على مزرع فيها بقول وقوزل(٣)

وكان المسلمون يرون أموال الفرس تنصب فى حجورهم: من غنائم وأسلاب وجزية تؤدى إليهم، فيذكرون ذلك فى عزة وفخر. فبعد المدائن: حاز المسلمون خزائن كسرى ودروعه وأسيافه، فقال أبو بجيد نافع بن الأسود:

فانتشلنا خزائن المرء كسرى   يوم ولوا وحاض منا جريضا(٤)

---

(١) الإصابة ج٥ ص٦٠.
(٢) الإصابة ج٥ ص١٠٩.
(٣) الطبرى ج٤ ص٢١٧٣.
(٤) الطبرى ج٥ ص٢٤٢٤.

وهذا ــ سهيل بن عدى يفخر بصيرورة خرج الجزيرة إلى المسلمين بعد وقعة الرقة، فيقول:

وصار الخرج ضاحية إلينا   بأكناف الجزيرة عن نقالى[(١)]

وهذا ــ عمرو بن مالك الزهرى ينادى إليه الفرس بقبول الجزية، بعدما ذاقوا مرارة القتال فى قرقيسيا:

فنادوا إلينا من بعيد بأننا   ندين بدين الجزية المتواتر[(٢)]

ودارت مثل هذه المعانى فى شعر عرب الحيرة، الذين استكثروا على المسلمين أن يسكنوا منازل المناذرة، وأن يمتلكوا الخورنق والسدير، وأن تؤدى إليهم الجزية، بعدما كانت تؤدى إلى كسرى، حتى قال عمرو بن عبدالمسيح بن بقيلة أحد زعماء الحيرة:

أبعد المنذرين أرى سواما   تروح بالخورنق والسدير
وبعد فوارس النعمان أرعى   قلوصا بين مرة والحفير
فصرنا بعد هلك أبى قبيس   كجرب المعز فى اليوم المطير
نؤدى الخرج بعد خراج كسرى   وخرج من قريظة والنضير[(٣)]

وكانت ملابس الجند الفارسيين وشكتهم يثيران فى نفوس المسلمين بعض الدهشة، فذكروها فى شعرهم، من مثل قول ربيعة بن مقروم:

متسربلى حلق الحديد كأنهم   جرب مقارفة عنية مهمل[(٤)]

كما أخذت بعض الكلمات الفارسية تسقط إلى المسلمين فيعجبون لها، كما حدث لهذا الذى يقول:

تبدلت من ليلى وجارات بيتها   قرى نبطيات يسمينني مردا[(٥)]

(١) ياقوت ج٢ ص٨٠٢.
(٢) ياقوت ج٤ ص٦٥.
(٣) ياقوت ج٢ ص٤٩٢.
(٤) المفضليات ٢٦٨.
(٥) ياقوت ج٤ ص٩٠٦.

كذلك كانت كنائس الروم وبيعهم وما فيها من زخرف ونقوش تلفت أنظارهم كما لفتت نظر حارثة بن النمر وقد شهد اليرموك فقال:

لله باليرموك قوم طحطوا ... أحساب عاتى الروم بالأقدام

فتعطلت منهم كنائس زخرفت ... بالشام ذات فسافس ورخام[1]

وأثرت هذه الأجواء الجديدة فى بعض العرب وفتنت نفرا منهم، فانحرفوا عن الصواب، وعكفوا على الخمر، وشهود مجالس الطرب والغناء واللهو، يغنيهم الدهاقين والمسمعات الأجنبيات، كما يصور ذلك النعمان بن عدى بن نظلة الذى ولى أعمال دست ميسان لعمر بن الخطاب فجرفته حياة اللهو بقوله:

الا هل أتى الحسناء أن حليلها ... بميسان يسقى من زجاج وحنتم

إذا شئت غنتنى دهاقين قرية ... وصناجة تجثو على حرف ميسم

فإن كنت ندمانى فبالأكبر اسقنى ... ولا تسقنى بالأصغر المتثلم

لعل أمير المؤمنين يسوءه ... تنادمنا بالجوسق المتهدم[2]

وبلغ الأمر عمر فقال: «وايم الله.. قد ساءنى ذلك».. وكتب إليه فعزله[3].

وعندما بلغ عمر أن بعض الجند فى الشام قد انصرفوا إلى الخمر كتب بأن يطبخ كل عصير بها حتى يذهب ثلثاه، فأخذ خلان الخمر يرثونها، ضائقين بهذا الأمر الصارم، كقول ذى الكلاع الذى شهد اليرموك، وكان السبب المباشر فى هذا الأمر:

ألم تر أن الدهر يعثر بالفتى ... وليس على صرف المنون بقادر

صبرت ولم أجزع وقد مات إخوتى ... ولست على الصهباء يوما بصابر

رماها أمير المؤمنين بحتفها ... فخلانها يبكون حول المعاصر

فلا تجلدوهم واجلدوها فإنها ... هى العيش للباقى ومن فى المعاصر[4]

(١) الإصابة ج٢ ص٥٦.
(٢) الإصابة ج٦ ص٢٤٣، ياقوت ج٤ / ٧١٤.
(٣) الإصابة ج٦ ص٢٤٣.
(٤) الإصابة ج٢ ص١٨٣، ج٧ ص٧٩.

وأسهم الرجز بنصيب في تصوير هذه الألوان الجديدة في الشعر، وإن كان ضئيلا، ولكنه يعبر عن هؤلاء الشعراء الذين اتخذوه سبيلا إلى التعبير. ورأينا أن نغمات الرجز لا تصلح لحمل مشاعر الحنين، التي تفترق أوتارها في رقتها وحزنها عن أوتاره في عنفوانها ودويها إلا أنه صور انطباع الشعراء وتأثرهم ببعض المشاهد الغريبة في البيئات الجديدة كما صورها الشعر.

وكان الفيل: أكثر هذه المشاهد لفتا للرجاز، فذكروه في أرجازهم ووصفوه. وهذا أحدهم يصفه لنا وصفا دقيقا، حتى لكأننا نراه أمامنا فيقول:

أجرد أعلى الجسم منه أضخم ... يجر أرحاء ثقالا تحطم
ما تحتها من قرضها وتهشم ... وحنك حين يمد أفقم
ومشفر حين يمد سرطم ... يرده في الجوف حين يطعم
لو كان عندي سبب أو سلم ... نجيت نفسي جاهدا لا أظلم[1]

وهذا آخر يصفه فيشبه آذانه بالمناديل فيقول:

من يركب الفيل فهذا الفيل ... إن الذي يركبه محمول
على تهاويل لها تهويل ... كالطود إلا أنه يجول
وأذنه كأنها منديل[2]

وسجل الرجز ما حدث عام الطاعون، والحرج الذي عاناه المسلمون في النزوح إلى الأماكن الموبوءة أو الخروج منها، وما شاع بين الناس آنذاك من استسلام لقضاء الله، فإنما يفر من فر من قضاء الله إلى قضاء الله، وحاول بعض الناس الفرار منه خوفا وفزعا، فأهاب بهم البعض أن يذعنوا للقضاء. فيروى: أن رجلا خرج على حمار فارا من الطاعون، فإذا بمن يحدو به يقول:

(١) الحيوان ج٧ ص١٧٢.
(٢) نفس المرجع.

لن يعجزوا الله على حمار ولا على ذى غرة مطار

قد يصبح الموت أمام السارى[1]

وأزمع رجل آخر الخروج فرارا من الطاعون أيضا فتردد بعد أن هم، وحدا به حاد يقول:

يأيها المشعر هما لا تهم إنك إن تكتب لك الحمى تحمم[2]

وكذلك عبر الرجز عن ركوب المسلمين الماء. فهذا مالك بن عامر أول كتيبة عاصم بن عمرو التى عبرت دجلة إلى المدائن يستحث الناس على العبور، ويذكرهم بما أعد لهم من أجر وثواب، ونصر وعدهم الله به، وخسران لأعدائهم فيقول:

امضوا فإن البحر بحر مأمور والأول القاطع منكم مأجور

قد خاب كسرى وأبوه سابور ما تصنعون والحديث مأثور[3]

وهكذا استخدم الفاتحون الذين أنطقتهم الفتوح بالشعر والرجز فى التعبير عن الأغراض المختلفة التى يستخدم فيها القصيد، فوصفوا فيه البطولات، وأشادوا بجهادهم، واستخدموه فى الرثاء، ووصف المشاهد، وما إلى ذلك من الألوان، التى لم يطرقها الرجز من قبل، وكانت وقفا على القصيد. ويرى الدارس: أن هذه لم تكن إلا مقدمة لاستخدامه فيما بعد، كقالب جديد، لا يقتصر على ألوانه الضيقة التى عرف بها فى الجاهلية، فى الحرب، والحداء، والمفاخرة[4]. فيصبح عند العجاج والأغلب العجلى وأبى النجم قالبا موازيا للشعر، يحتفلون به ويطورونه تطويرا. فضلا عن دوره الكبير الذى ظل يؤديه فى التعبئة الروحية والمعنوية للجند فى أثناء القتال.

وهكذا يدهش من يطالع شعر الفتوح فى هذه الألوان الجديدة، عندما تطالعه تلك الآثار السريعة للاحتكاك الحضارى فى الميادين والأمصار المفتوحة، التى تركت ميسمها على الشعر، بعد أن أثرت فى قائليه أثرا سريعا وموقوتا، ولكنه ملحوظ، برغم الفترة القصيرة التى استغرقها هذا الاحتكاك.

(١) الطبرى ج٥ ص٢٥٢١.

(٢) الطبرى ج٥ ص٢٥٢١.

(٣) أسد الغابة ج٤ ص٢٨٢.

(٤) الأغانى (الساسى) ج٨١ / ص١٦٤.

obeikandl.com

الفصل الثانى

الطوابع الإسلامية فى شعر الفتوح

١ ـ صدور الشعر عن روح الإسلام

ليس ثمة شك يقتضى التدليل والبرهان على أن الإسلام قد خلق قيما جديدة فى حياة العرب، وأن هذه القيم قد امتد أثرها إلى كافة مجالات الحياة العربية ومظاهرها، بما فى ذلك الشعر الذى طبع بطوابع إسلامية جلة فى شكله ومضمونه.

فقد أدت ظروف الفتح المادية والنفسية إلى إحداث تغيير فى شكل الشعر الذى صدر فى الفتوح. فاختفت المقدمات الغزلية والطللية، وانكمشت القصائد فصارت مقطعات قصيرة، فضاقت من ثم عن استيعاب أكثر من غرض واحد من أغراض الشعر، لتكون متفقة مع قصر النفس الشعرى، بسبب اهتمامات القتال، ولتطير على ألسنة الشعراء العاديين الذين راحوا يودعون الأبيات القصيرة من القصيد والرجز مشاعرهم، ويتخذونها أداة سريعة للتعبير عن ذوات أنفسهم، وحمل ما بنفوسهم من أحاسيس.

ولعل الطوابع الإسلامية التى طبعت المضمون فى هذا الشعر أوضح الطوابع التى تعرض للتأثر بها وأعمقها على الإطلاق. فلو تصفح الدارس شعر الجهاد وهو يمثل كثرة شعر الفتوح لوجده فى مجموعه يذهب فى الفخر، والإشادة ببلاء المسلمين، وتصوير نكايتهم بالعدو كمجموع متحد الوجدان. ولذا يسم الشعر فى كثرته استخدام ضمير الجماعة بشكل ملحوظ.

وهذه الجماعة بطبيعة الحال ليست القبيلة أو العشيرة، وإنما هى جماعة المسلمين الكبيرة، التى استوعبت كل العلاقات العصبية والقبلية، القائمة على وشائج القربى والدم والنسب، فنسختها فى إطار وجدانى قومى وفكرى، يقوم على أواصر الإنسانية والأخوة والعقيدة والمساواة، وراح الشعراء يصدرون عنه.

ونحن بطبيعة الحال لا نعدم أن نجد شعراء يتغنون بقبائلهم، غير أن ذلك لم يحدث إلا نادرا، عندما يتصادف أن يجتمع نفر كبير من قبيلة بعينها فى ميدان معركة واحدة، كما حدث لجمع بنى أسد، الذين استشهد منهم عدد كبير فى مقتلة الفيل يوم القادسية، وأخذ بعض شعرائهم يصورون ما قاموا به من الفداء، ويشيدون بما أبدوا من ضروب البسالة والتضحية، ويفخرون بقومهم، ولكنهم يفخرون بإسلامهم، وبطاعتهم لربهم وبذلهم فى سبيله، كما فى مقطوعة نافع بن الأسود التميمى، التى يقول فيها عن قومه:

هم أهل عـز ثـابت وأرومـة ... وهم من معد فى الذرا والغلاصم

وهم يضمنون المال للجار ماثوى ... وهم يطعمون الدهر ضربة لازم

ثم يقول:

ولما أتى الإسلام كانوا أئمة ... وبادوا معدا كلها بالجرائم

إلى هجرة كانت سناء ورفعة ... لباقيهم فيهم وخير مراغم

فجاءت بيهم فى الكتائب نصرة ... فكانوا حماة الناس عند العظائم

فصفوا لأهل الشرك ثم تكبكبوا ... وطاروا عليهم بالسيوف الصوارم(١)

ويظهر ذلك بوضوح فى قول الأسود بن سريع التميمى فى الفخر ببنى أبيه إذ يقول يوم الأهواز:

لعمرك ما أضاع بنو أبينا ... ولكن حافظوا فيمن يطيع

أطاعوا ربهم وعصاه قوم ... أضاعوا أمره فيمن يضيع(٢)

وليس يعنى وجود ضمير الجماعة فى قصائد الجهاد اختفاء ملامح الفرد الشخصية فى هذا الشعر، وإنما الحقيقة. أن الفرد كان يصدر فى بعض هذا الشعر عن ذات نفسه مع اعتبار هذه الذات جزءا من الجماعة التى تمثل ضميرها فصدر عنها فى صدوره عن

---

(١) الإصابة ج٦ ص٢٦٢ .

(٢) الطبرى ج٥ ص٢٥٤١.

ذاته، واشتق معانيه من وحيها، وهو حينئذ: إنما يفخر بنفسه من حيث هو فرد منها، ليعود عليها كل ما يذكر عن نفسه. فهو لا يذكر شيئا ليبين تفرده به دون الجماعة، وإنما يعلن: أنه صورة ومثل على جميع أفرادها.

فهذا عبدالله بن عتبان الذى افتتح جى من أعمال أصبهان يفتخر بنفسه فى بيت واحد، ثم إذا به يرتد إلى الوجدان الجماعى، ليفخر بجماعة المسلمين وبلائهم فيقول:

من مبلغ الأحياء عنى فإننى ... نزلت على جى وفيها تفاقم

حجزناهم حتى سروا ثم انتزوا ... فصدهم عنا القنا والصوارم

وجاد لها القاذوسقان بنفسه ... وقد دهدهت بين الصفوف الجماجم

ثم لا يلبث أن ينزع إلى تصوير ما أذاقه بيده لكبير القوم فيقول:

فثاورته حتى إذا ما علوته ... تفادى وقد صارت إليه الخزائم

ويعود إلى الوجدان الكبير فيقول:

وعادت لقوحا أصبهان بأسرها ... يدر لنا منها القرى والدراهم

ثم ينزع إلى الحديث عن نفسه كمسئول عن هذه الجماعة فى تقبل جزية المهزومين فيقول:

وإنى على عمد قبلت جزاءهم ... غداة تفادوا والعجاج فواقم

ويرجع إلى الحديث عن جماعة المسلمين التى استحقت النصر كلها وزكا جهادها، فيقول:

ليزكوا لنا عند الحروب جهادنا ... إذا انتطحت فى المازمين الهماهم(١)

وهذا سراقة بن عمرو الذى أرسله أبو موسى الأشعرى لفتح باب الأبواب يفخر بنفسه، ثم لا يلبث أن يطلق الفخر فى مجموع المسلمين، فيقول:

---

(١) الإصابة ج٦ ص٢٦٢.

ومن يك سـائلا عنى فـإنى بأرض لا يواتيـهـا القـرار
بيـاب التـرك ذى الأبواب دار لهـا فى كل ناحـيـة مـغـار
نذود جـمـوعهم عـمـا حـوينا ونقـتـلهـم إذا باح السـرار
سـددنا كل فـرج كـان فـيـهـا مكـاثرة إذا سطـع الغـبـار
وألحـمنا الجـبـال جـبـال قـبج وجـاوز دورهم منا ديـار
وبادرنـا العـدو بـكل فـج نناهبـهـم وقـد طار الشـرار
على خـيل تعـادى كل يوم عـتـادا ليس يتـبعـهـا المهـار(١)

وليس أدل على ما نحن بصدده من قول المثنى بن حارثة، وهو يرى أفناء العروب وأحياءها جميعا جنودا غير متمايزين فى جنده، وكأنهم أبناء أم واحدة، هى الوغى:

صبـحنا بالخنافس جـمـع بكر وحـيا من قـضاعـة غـير مـيل
بفـتـيـان الوغـى من كل حى تبارى فى الحـوادث كل جيل(٢)

وهكذا يخـفت صوت القـبليات، فـلا نعود نسـمع بتمـيم أو مذحج إلا لمـاما. وأخذت تعـبيرات جديدة تظهـر فى الدلالة على الفاتحيـن، فهم فتيـان الوغى، فى قول المثنى. وهم جند السلم، فى قول القعقاع:

فما فتئت جنود السلم حتى رأينا القوم كالغنم السوام(٣)

وهم الفتيان الكماة فى قول عاصم بن عمرو:

صبحناهم بكل فتى كمـى وأجرد سابح من خيل عاد(٤)

وهم رجال هاجروا نحو ربهم، فى قول عاصم أيضا:

(١) ياقوت ج١ ص٤٣٧.
(٢) ياقوت ج٢ ص٤٧٣.
(٣) ياقوت ج٣ / ٨٩٤.
(٤) الطبرى ج٤ ص٢١٧٤.

لعمرى وما عمرى على بهين لقد صبحت بالخزى أهل النمارق

بأيدى رجال هاجروا نحو ربهم يجوسونهم ما بين درتا وبارق(١)

وهم الأنصار فى قول أبى محجن الثقفى يوم الجسر وهم الفتية أيضا:

مررت على الأنصار وسط رحالهم فقلت ألا هل منكم اليوم قافل

إلى فتية بالطف نيلت سراتهم وغودر أفراس لهم ورواحل(٢)

وهم جموع المسلمين فى قول عياض بن غنم:

من مبلغ الأقوام أن جموعنا حوت الجزيرة يوم ذات زحام(٣)

وهم جند الله، كما يقول زياد بن حنظلة:

وإذ أرطبون الروم يحمى بلاده يحاوره قرم هناك يساجله

فلما رأى الفاروق إزمان فتحها سما بجنود الله كيما يصاوله(٤)

وصدر الشعر فضلا عن روح الجماعة بوحى من المثل الإسلامية التى طبقت فى الفتوح والأمصار المفتوحة، وترى فى هذا الصدد أمثلة كثيرة.

فنتيجة لتطبيق المساواة التى دعا إليها الإسلام لم يعد فرق بين عربى وأعجمى إلا بالتقوى. فنجد المسلمين فى فتح جند يسابور يهبون أحد العبيد بها ـ وكان قد أسلم من قبل ـ شرفا لم يمنحوه لغيره من عظماء المدينة، فأجار مكنف هذا مواطنيه من سفك دمائهم، وكتب اسمه أمانا لهم قبله المسلمون. فقال عاصم بن عمرو يذكر هذه الشفاعة وما تدل عليه من معان:

لعمرى لقد كانت قرابة مكنف قرابة صدق ليس فيها تقاطع

أجارهم من بعد ذل وقلة وخوف شديد والبلاد بلاقع

---

(١) ياقوت ج٤ ص٥٣٢.
(٢) أغانى الساسى ج٢١ / ١٤١.
(٣) البلاذرى ص٢٥١ ، ياقوت ج٢ / ٧٤.
(٤) الطبرى ١/٥/٢٤١١.

فجاز جوار العبد بعد اختلافنا ... ورد أمورا كان فيها تنازع
إلى الركن والوالى المصيب حكومة ... فقال بحق ليس فيه تخالع(١)

وكذلك أخذت آثار الديمقراطية الإسلامية تظهر فى الشعر، عندما يناقش عبدالرحمن بن حنبل الخليفة حساب فىء المسلمين، ويتهمه بتبديده، وتوزيعه بين أهله وخاصته، فيقول:

وأحلف بالله جهد اليمين ... ما ترك الله أمرا سدى
ولكن خلقت لنا فتنة ... لكى نبتلى بك أو نبتلى
دعوت الطريد فأدنيته ... خلافا لما سنه المصطفى
ووليت قرباك أمر العباد ... خلافا لسنة من قد مضى
وأعطيت مروان خمس الغنيـ ... ـمة آثرته وحميته الحمى
ومالا أتاك به الأشعرى ... من الفىء أعطيته من دنا
فإن الأمينين قد بينا ... منار الطريق عليه الهدى
فما أخذا درهما غيلة ... ولا قسما درهما فى هوى(٢)

وكذلك أخذت شكوى المسلمين من العمال والأمراء تنظم شعرا إلى الخليفة، كأبيات يزيد بن الصعق إلى عمر بن الخطاب، يغريه فيها ببعض الولاة، الذين استغلوا مناصبهم ونهبوا أموال المسلمين، ويطلب منه أن يجردهم منها، أو يشاطرهم فيها، فيقول:

أبلغ أمير المؤمنين رسالة ... فأنت أمين الله فى النهى والأمر
وأنت أمين الله فينا ومن يكن ... أمينا لرب العرش يسلم له صدرى
فلا تدعن أهل الرساتيق والقرى ... يسيغون مال الله فى الأدم والوفر

---

(١) ياقوت ج٢ ص١٣٠.
(٢) الاستيعاب ٤١٠، الأغانى ج٦ /٢٦٨.

فأرسل إلى الحجاج فاعرف حسابه		وأرسل إلى جزء وأرسل إلى بشر
ولا تنسين النافعين كلاهما		ولا ابن غلاب من سراة بنى نصر
وما عاصم منها بصغر عناية		وذاك الذى فى السوق مولى بنى بدر
وأرسل إلى النعمان فاعرف حسابه		وصهر بنى غزوان إنى لذو خبر
وشبلا فسله المال وابن محرش		فقد كان فى أهل الرساتيق ذا ذكر
فقاسمهم ـ نفسى فداؤك ـ إنهم		سيرضون إن قاسمتهم عنك بالشطر
ولا تدعونى للشهادة إننى		أغيب ولكنى أرى عجب الدهر
نئوب إذا آبوا ونغزو إذا غزوا		فأنى لهم وفر ولسنا ذوى وفر(١)

وراح بعض الشعراء يقارنون بين الأمراء فيهم والصحابة الراشدين، ويوازنون بين عدلهم وحسن سياستهم للأمة وما يجدون من أمرائهم فى الأمصار من مخالفة عن سننهم كما يظهر فى قول النابغة الجعدى لأبى موسى الأشعرى والى البصرة:

فإن يكن ابن عفان أمينا		فلم يبعث بك البر الأمينا
فيا قبر النبى وصاحبيه		ألا يا غوثنا لو تسمعونا
ألا صلى إلهكم عليكم		ولا صلى على الأمراء فينا(٢)

وظهر فى شعر الفتوح أيضا بعض الآثار الناتجة عن تطبيق الحدود الإسلامية على المنحرفين فى الأمصار، ومن أمثلة ذلك: أن نقب بعض شباب الكوفة جدار ابن الحيثمان الخزاعى وقتلوه، فكتب عثمان بقتلهم، وفى هذا يقول عاصم بن عمرو مشيدا باتباعه محكم الفرقان فى عقابهم:

إن ابن عفان الذى جربتم		فطم اللصوص بمحكم الفرقان
مازال يعمل بالكتاب مهيمنا		فى كل عنق منهم وبنان(٣)

---

(١) البلاذرى ص٣٨٤ ، الإصابة ج٢ ص٩٦، ج٦ ص٣٦١.
(٢) الأغانى (ساسى) ج٤ ص١٣٧ .
(٣) الطبرى ج٥ ص٢٨٤١ .

ومن هذه الآثار أيضا: ما قاله ضابئ بن الحارث البرجمي، الذي سجن بالكوفة بأمر من عثمان بن عفان، فقد استعار من قوم من الأنصار كلبا من كلاب الصيد يدعى «فرحان»، وحبس الكلب عن أصحابه ورفض إعادته إليهم، فكاثروه وانتزعوه منه، فهجاهم بقوله:

تجشم دوني وفد فرحان خطة ... تضل لها الوجناء وهي حسير

فباتوا سباعا ناعمين كأنما ... حباهم ببيت المرزبان أمير

فكلبكم لا تتركوا فهو أمكم ... فإن عقوق الأمهات كبير(١)

وأثر فيهم هذا الهجاء المقذع، فاستعدوا عليه عثمان، الذي كتب إلى الوليد بن عقبة بحبسه واستثقل ضابئ الحبس وتنبأ بموته في السجن وتحقق ظنه، حيث قال:

هممت ولم أفعل وكدت وليتني ... فعلت ووليت البكاء حلائله

وقائلة قد مات في السجن ضابئ ... ألا من لخصم لم يجد من يجادله

وقائلة لا يبعد الله ضابئا ... فنعم الفتى تخلو به وتحاوله(٢)

وكان كعب بن ذي الحبكة النهدي في الكوفة يعالج بالسحر والشعوذة وبلغ عثمان ذلك، فأرسل إلى الوليد أن يتبين أمره، فإن كان حقيقة ضربه موجعا، ثم غربه إلى دنباوند من أعمال الري، ففعل الوليد، فقال في تغريبه:

لعمري لئن أطردتني ما إلى الذي ... طمعت به من سقطتي لسبيل

رجوت رجوعي يا ابن أروى ورجعتي ... إلى الحق دهرا غال حلمك غول

وإن اغترابي في البلاد وجفوتي ... وشتمي في ذات الإله قليل

وإن دعائي كل يوم وليلة ... على بدنبا وندكم لطويل(٣)

وكان هذا الشاعر من رءوس الفتنة في قتل عثمان.

---

(١) الطبري ج٥ ص٣٠٣٣.

(٢) الطبري ج٥/ ص٣٠٣٤.

(٣) ياقوت ج٢/ ٦٠٩، الطبري ج٥/ ٣٠٣٣.

obeikandi.com

٢ـ أحاسيس ومشاعر دينية

لعل أقرب تسمية للمسلمين فى شعر الفتح كله ما أسماهم به زياد بن حنظلة من أنهم رجال الله، فهذه التسمية أكثر انطباقا عليهم وعلى الحقيقة. إذ إنهم أدركوا هذا تمام الإدراك يوم أن اتخذوا هذه العقيدة دينا، ويوم توحدت كلمتهم على هذا الدين الذى بث فيهم أحاسيس ومشاعر سامية، وأبدلهم من بعد ضعف قوة، وجعلهم يشعرون بأنهم دائما منتصرون ماداموا جندا فى سبيل إعلاء كلمته. وقد تغلغل فى مكان الاعتقاد منهم صدق الداعى الذى دعاهم إلى سعادة الدنيا والآخرة. فتأكد لهم أن الآخرة خير وأبقى، مادام الله قد اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، يقاتلون فى سبيله فيقتلون ويقتلون. وأن الذين فى سبيل الله ليسوا أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون، فرحين بما آتاهم الله من فضله، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم.

واستقر فى موضع اليقين منهم: أن الله عز وجل منزل نصره عليهم، إذا صدقت منهم النيات فى لقاء عدوهم، فيفوز المقتول منهم بسعادة الآخرة، ويحرز الباقى سعادة الدنيا. ولهذا كان شعارهم دائما قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا ﴿٥٢﴾﴾ [التوبة].

ولهذا فإن الفاتحين المؤمنين لم يحرصوا على الحياة حرصهم على الفوز بالجنة، ولم يجزعوا من الموت، فإن كل شىء قدر تقديرا ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأعراف].

وقد تجلت هذه المعانى فى الشعر الذى صدر عن الفاتحين منطلقهم إلى الجهاد، يردون فيه على ذويهم الذين تمسكوا بهم وناشدوهم البقاء، واستعدوا الخليفة أن يردهم إذ لا عائل لهم سواهم، فكانوا يجيبون بأن الله قد دعاهم من قبل، وبأنهم استجابوا لداعيه.

وقد ظل هذا الإحساس يلازم المجاهدين فى الميدان. فكانت أسمى ملحمة فى تاريخ العقيدة عرفها العالم إلى اليوم، إذ كان بعض المحاربين يشرون أنفسهم صائمين ويستشهدون، كما فعل المهاجر بن زياد الحارثى وغيره[1]. فقد كانوا لا يرون أمامهم إلا

---

(١) البلاذرى ص٣٧٧.

ما وعـد الله من الجنة والأجر العظيم، لا طلبـة لهم إلا الموت أو النصر، ولا غـاية بعد هذين من جاه أو ثروة، ومازالت أبيات عروة ترن فى أسماعنا إذ يقول:

فلا ثروة الـدنيا نريد اكـتسابـها ... ألا إنهـا عن وفـرها قـد تجلت
وماذا أرجى من كنوز جـمعتـها ... وهذى المنايا شـرعـا قـد أطلت
وأصبح هـمى فى الجهاد ونـيتى ... فلله نـفـسى أدبـرت وتولت(١)

وهم لا يستشعـرون أدنى ضجر أو ضيق بإزاء ما يلقون من مـشاق الجهاد، ومن المنايا التى تحدث بهم من كل جـانب، وإنما هم يحمدون هذه المشـاق التى ساقتهم إليـها عقيدتهم، ويشكرون الله عز وجل أن هداهم للإيمـان، ويسألونه أن يوفقهم فى طاعته. يقول فى ذلك عروة بن زيد الخيل:

صبـرت لأهل القادسـية مـعلما ... ومثلى إذا لم يصـبر القرن أصـبر
فطاعنتـهم بالرمح حـتى تبـددوا ... وضاربتهم بالسيف حتى تكركروا
بذلك أوصــانى أبى وأبـو أبى ... كـذلك أوصـاه فلـست أقـصـر
حـمـدت إلهى إذ هـدانى لدينه ... فلله أسـعى مـاحييـت وأشكر(٢)

ورائعـة هذه الأهازيج التى كـان يلقى بهـا المجـاهدون وهم يلقـون أعـداء الله، ويعلنون فيها أنهـم لا يبغون إلا الشهادة أو النصر، كمـا جاء على ألسنة أبناء الخنساء يوم القادسية، حينما ألقوا بأنفسهم إلى الموت واحدا إثر الآخر، وأجمعوا على هذا المعنى فى نهاية أراجيزهم، فقال الأول:

وأنتم بين حــــياة صالحة ... أو ميتة تورث غنما رابحة(٣)

وقال الثانى:

إما لفوز بارد على الكبد ... أو ميتة تورثكم عز الأبـــد
فى جنة الفردوس والعيش الرغد(٤)

---

(١) ، (٢) الأخبار الطوال ص١٤٨.
(٣)، (٤) الاستيعاب ص٧٤٥.

وقال الثالث:

إما لفوز عاجل ومغنم ... أو لوفاة فى سبيل الأكرم(١)

وبنفس هذه الروح المؤمنة كانوا يواجهون الموت، فإن أدركهم فى عزيز لديهم لم يجزعوا. وما يجدى الجزع ولكل أجل كتاب، إن الموت حق، وأمر لا بد من نفاذه ضربة لازب. ولا يملكون أمامه إلا الإيمان والتسليم. وعلام البكاء وسوف يبكى على الباكين فى يوم قريب.. بمثل هذه المشاعر كانوا يواجهون الموت، كما واجهه أبو ذؤيب بهذا الإيمان العميق فى قوله:

وإذا المنية أنشبت أظفارها ... ألفيت كل تميمة لا تنفع

لا بد من تلف مقيم فانتظر ... أرض قومك أم بأخرى المصرع

ولقد أرى أن البكاء سفاهة ... ولسوف يولع بالبكا من يفجع

وليأتين عليك يوم مرة ... يبكى عليك مقنعا لا تسمع(٢)

ونفس هذه الروح نجدها فى مرثية كثير بن الغريزة، إذ يقول:

ورب أخ أصاب الموت قبلى ... بكيت ولو نعيت له بكانى

فلا تستبعدا يومى فإنى ... سأوشك مرة أن تفقدانى(٣)

وكانت تشيع فى رثائهم ـ إلى جانب نغمة التسليم والإيمان ـ نغمة رضاء واستبشار واستحسان، لما قدمه الشهيد باستشهاده، وما تحمله من تضحيات، فعليه إذن أن ينام قرير العين، هانئ البال. يقول القعقاع فى رثاء خالد بن يعمر:

حضض قومى مضر حى بن يعمر ... فلله قومى حين هزوا العواليا

وما خام عنها يوم سارت جموعنا ... لأهل قديس يمنعون المواليا(٤)

---

(١) الاستيعاب ص٧٤٥.

(٢) ديوان الهذليين ج١ ص٣.

(٣) البلاذرى / ٢٧٩ ، ياقوت ج٢/ ١٤٩.

(٤) الطبرى ج٥ ص٢٣٢٩.

وهذا خليد بن المنذر يدعو لهؤلاء الذين خضبوا بدمائهم الرماح يوم طاووس فيقول:

فلا يبعدن الله قوما تتابعوا | فقد خضبوا يوم اللقاء العواليا[1]

وهذا عبدالله بن سبرة الجرشى ـ الذى قطع الأرطبون يده يوم فلطاس ـ لا يشعر بالحسرة والندم على يده، إلا أنها تمنعه الجهاد، ولكن مادام بها بنانتان وجرموز يقيم بها صدر القناة فلا بأس. وعلام يتحسر عليها وقد قامت بدورها فقطعت أوصال الأرطبون قبل أن يقطعها وفى هذا يقول:

فإن يكن أرطبون الروم قطعها | فقد تركت بها أوصاله قطعا

وإن يكن أرطبون الروم أفسدها | فإن فيها بحمد الله منتفعا

بنانتان وجرموز أقيم بها | صدر القناة إذا ما آنسوا فزعا[2]

ومن المشاعر الإسلامية الخطيرة التى شاع أثرها فى الشعر. ما ركزه الإسلام فى العرب من إحساس بالقوة، وما أثمره عمق إيمانهم من اعتداد بأنفسهم، وتقدير لذواتهم، واستهانة بقوى الباطل، لإيمانهم بأنهم على حق وفى سبيله.

وقد أبدلهم الإسلام عن إحساسهم بالضعف والهيبة أمام الفرس والروم فى الجاهلية إحساسا بالقوة، وشعروا بأنهم الأعلون، وإن على أكتافهم تقع مسئولية تبليغ الرسالة، التى أضحوا قوامين عليها إلى العالمين، بما فى ذلك دولة فارس ودولة الروم.

وبغير هذا الإحساس لم يكن يتسنى للعرب ـ وهم فل حروب داخلية حصدتهم حصدا، ولم يكن يمكنهم وهم على ما هم عليه من ضعف العدة وضيق ذات اليد وقلة العدد بالقياس إلى هاتين الدولتين ـ أن يستبيحوا حماهما أو أن يدوسوا حصونهما ومعاقلهما.

فقد قلب هذا الإحساس ـ بالثقة والمسئولية ـ ميزان الموقف رأسا على عقب. فإذا بالحفاة العراة رعاة الإبل وأكلة الحنظل يطبقون من كل جانب على سادة الأمس القريب، وهم على ما هم عليه من ضخامة الثروة، والمدنية والعمران، وانفساح الرقعة،

(١) ياقوت ج٢ ص٤٩٤.

(٢) الإصابة ج٥ ص٦٠ و٩٢.

obeikandl.com

والبطش والقوة. وإذا بهم يسوقونهم سوقا إلى حظيرة الإسلام، ويزلزلون عروشهم، ويأخذون منهم الجزية عن يد وهم صاغرون، وإلا حكموا فيهم سيوفا مؤمنة تصرعهم فى كل وقعة.

أجل كان العرب فى جميع أطوار حياتهم ــ بحيال دولتى الفرس والروم ــ لا يهجس فى نفوسهم هاجس بالاستطالة عليهم أو مساماتهم، وإنما كان قصارى من سمت به همته إلى الملك منهم أن يكون تابعا لهما خاضعا لسيطرتهما، كما كان المناذرة عمالا للفرس، والغساسنة عمالا للروم.

ولكن: أما وقد جاءهم الإسلام بهذه الأحاسيس، فبث فيهم تلك المشاعر، ووحد كلمتهم، وأمد لهم فى الأمل فما النصر إلا من عند الله وإن ينصرهم فلا غالب لهم. فأولئك حزب الله، ألا إن حزب الله هم المفلحون.

ولو رجعنا إلى أقوال قوادهم ورسلهم إلى كبراء هاتين الدولتين العظيمتين وقوادهما لوجدناها تنطق بهذه الآمال وبتلك الثقة، كما يظهر فى قول المغيرة بن شعبة لرستم لما خوفه مغبة الأمر إذ قال: «يدخل من قتل منا الجنة، ومن قتل منكم النار، ويظهر من بقى منا على من بقى منكم»[(١)].

وهذا عبادة بن الصامت وقد خوفه المقوقس قوة الروم وكثرة عددهم على حين أن العرب قلة لا يقدرون عليهم يواجهه فى ثقة وإيمان وبسالة بقوله: «يا هذا.. لا تغرن نفسك وأصحابك. أما ما تخوفنا به من جموع الروم وعددهم وكثرتهم، وأنا لا نقوى عليهم فلعمرى.. ما هذا الذى تخوفنا بالذى يكسرنا عما نحن فيه، وإن كان ما قلتم حقا فذلك ــ والله ــ أرغب ما يكون، فى قتالهم، وأشد لحرصنا عليهم، لأن ذلك أعذر لنا عند ربنا إذا قدمنا عليه، وإن قتلنا عن آخرنا كان أمكن لنا فى رضوانه وجنته. وما شىء أقر لأعيننا ولا أحب إلينا من ذلك»[(٢)]. وتدور هذه الروح. فى كتب خالد بن الوليد وغيره من قواد المسلمين إلى قواد الفرس وعظمائهم. وقد سكب بعض الفاتحين هذه الروح فى أشعارهم، فصوروا أعداء المسلمين وسادتهم بالأمس فى صور تدل على

---

(١) الطبرى ٥/ ٢٢٧٩.

(٢) المقريزى ج٢ / ٢٩٠ ، ابن عبد الحكم ٥٩/ ٦٠.

هوانهم على المسلمين، وخذلانهم أمام الحق الأبلج، فهم أناس لا يدافعون عن فكرة كما يفعلون، ولا يحامون عن الحقيقة كما يحامون.

والفرس مجوس لا يعرفون الله الذى هدى العرب إلى الإسلام، وليس لهم كتاب يهديهم إلى الحق، فهم فى معصية الله، ولكن المسلمين فى طاعته يقول الأسود بن سريع التميمى:

أطاعوا ربهم وعصاه قوم ... أضاعوا أمره فيمن أضاعوا
مجوس لا ينهنهما كتاب ... فلاقوا كبة فيها قبوع(١)

وهذا أوس بن بجير الطائى، يقرر هذه الحقيقة إذ يقول:

ليت أبا بكرى يرى من سيوفنا ... وما نجتلى من أذرع ورقاب
ألم تر أن الله لا رب غيره ... يصب على الكفار سوط عذاب(٢)

وقد راح الفاتحون يصورون الفرس فى صور مختلفة، معبرين بذلك عن استهانتهم بهم واحتقارهم. فهذه قصورهم قد آل ما بقى منها إلى المسلمين، وخرب منها ما خرب، حتى عادت كأضراس الكلاب، كما يقول عاصم بن عمرو فى قصور الحيرة:

حصرنا فى نواحيها قصورا ... مشرفة كأضراس الكلاب(٣)

وقد حطهم المسلمون من هذه القصور فزلزلوا عروشهم، كما يقول القعقاع بن عمرو:

حططناهم منها وقد كان عرشهم ... يميل به فعل الجبان المخالف(٤)

وهذه بلادهم المنيعة الحصينة التى كانت حراما لا يرام بالحشود، أصبحت حلالا للمسلمين مباحا، وأصبح تمر النرسيان الذى لم يكن يأكله إلا الأكاسرة طعاما حلالا لهم، كما يقول عامر بن عمرو:

---

(١) الطبرى ج٥ / ٢٥٤١.
(٢) الإصابة ج١ / ١١٧.
(٣) ياقوت ج٢/ ٢٧٥.
(٤) الطبرى ج٤ / ٢٠٤٧.

فظلــت بلاد النرســيـــان وتمره		مـباحــا لمن بين الديـار الأضافـر
أبحنا حمـى قوم وكان حــماهم		حراما على من رامـه بالعساكر[1]

وها هم المسلمون يغلبون ملوك الجزيرة، فيشلون حركتهم، ولا يستطيعون معاونة حلفائهم من الروم، كما قال عياض بن غنم:

غلبوا الملوك على الجزيرة فانتهوا		عن غزو من يأوى بلاد الشام[2]

وهذه كنوز المرء كسرى، تلقى فى حجورهم، كما يقول نافع بن الأسود:

وانتشلنا خزائن المـرء كســـــرى		يوم ولوا وحــاض منا جريضا[3]

وها هم المسلمون يذيقونهم ما لم يقدروا وما لم يحتسبوا، فإذا بهم يتنادون بقبول الجزية صاغرين، كما يقول عبدالله بن بشير بن عامر:

غداة رأوا الخـيل العراب مغـيرة		تقـرب منهـم أسـدهن الكوالحـا
تنادوا إلينا واسـتجـاروا بعهـدها		وعادوا كـلابا فى الديار نوابحا[4]

ويعبر عمرو بن مالك الزهرى عن هذا المعنى فيقول:

فنادوا إلينا عن بعيد بأننا		ندين بدين الجزية المتواتر[5]

وهذا الأسود بن قطبة يفخر بأن الفرس قد دفعوا إليه بفدية الأسرى وأنفهم راغم، فيقول:

ألا أبلغـا عنـى الغـريب رسـالة		فقد قـسمت فينا فيـوء الأعاجم
وردت علينا جـزية القــوم بالذى		فككنا به عنهم ولاة المعـاصم[6]

---

(١) ياقوت ج٤ / ٧٧٤.
(٢) ياقوت ج٢ / ص٧٤.
(٣) الطبرى ٥/ ٢٤٣٤.
(٤) ياقوت ج٢ ص٤١٢.
(٥) ياقوت ج٢ / ٦٥.
(٦) الإصابة ج١ / ١٠٨.

وبهذا الإحساس وحده نفى المسلمون فارسا عما أرادت وأبادوها، وكانت ثابتة الأركان ممتدة السلطان، كما يقول عمرو بن شأس الأسدى:

نفينا فارسا عمـــا أرادت ... وكانت لا تحـاول أن تريم[1]

ولم تعد نارس عرين أسود، وإنما سارت بأيدى المسلمين حظيرة كلاب نابحة، لا يقيم لها المسلمون وزنا، كما يقول الراجز:

وإنما تلقون عنـــد الصائحة ... من آل ساسان الكلاب النابحة[2]

وهى لاتزال تعوى تحت ضربات المسلمين فى معارك حامية الأوار، كتلك التى قادها النعمان بن مقرن يوم أربك حيث يقول:

عوت فارس واليوم حـام أواره ... بمحتفل بين الدكـاك أربك[3]

والفرس ليسوا إلا أنعاما، لا حول لهم ولا قوة أمام المسلمين الذين يصرعونهم على الآكام، كما يقول زهرة بن حوية:

وصرعوا الفـرس على الآكام ... كأنهم نعـم من الأنعـام[4]

وهم أيضا أجساد نجسة مجوسية مشركة، كما ينعتهم نافع بن الأسود فى قوله:

فضضت جموع الفرس ثم أنمتهم ... فتبا لأجساد المجوس النجائس[5]

وهذا مجد فارس تهدمت أركانه، ولم يعد هنالك إلا الإماء والثواكل النائحات تبكين وتعولن على المجد الضائع تحت سيوف المنتصرين، يقول القعقاع بن عمرو:

فنحن الألى فزنا بحلوان بعدما ... أرنت على كسرى الإما والحلائل[6]

---

(١) الاستيعاب / ٧٤٥.
(٢) ياقوت ج١/ ١٨٥ .
(٣) الطبرى ٥/ ٢٤٤٩.
(٤) الطبرى ٥/ ٢٤٧٢.
(٥) ياقوت ج٢ / ٣١٧.
(٦) الطبرى ج٥/ ٢٣٠٣.

ويقول عمرو بن شأس الأسدى:

وداعية بفارس قد تركنا ... تبكى كلما رأت الهلالا(١)

وكذلك كـان شأن الروم، إذ انهارت دولتهم، وأقـبلت الشام العريضة بما علـيها ومن عليها تلقى بنفسها وبخيراتها إلى المسلمين، كما يقول زياد بن حنظلة:

وأقـبلت الشام الـعريضـة-بالذى ... أراد أبو حــفص وأزكى وأزيدا

فـقسط فـيمـا بينهم كل جـزية ... وكل رفاد كان أهـنا وأحمدا(٢)

وعندما طرد المسلمون أرطبون من أجنـادين إلى بيت المقدس شريدا فطموا الروم عن الشام، كما يقول زياد أيضا:

ونحـن تركنا أرطـبـــون مـطردا ... إلى المسجد الأقصى وفـيه حسور

فطمنا به الروم الـعريضـة بعـده ... عن الشام أدنى ما هناك شطير(٣)

وها هى دولة الفرس تبيد، ويصبح الفرس رعـاة الشياه للمسلمين، وكأن ملكهم كان حلما وليس هذا إلا بما نصر الله به المؤمنين، ومـا كانوا ليهتدوا إلا أن هداهم الله. يقول النابغة الجعدى:

يا أيـهــــا الناس هل تـرون إلى ... فـارس بادت وجـدهـا زعـمـا

أمـسوا عـبـيـدا يرعون شـاءكم ... كـــأنما كــان ملكـهم حلمـا

أو سـبـأ الحاضـرين مـأرب إذ ... يبنون من دون سـيله العرمـا(٤)

وها هى دولة الروم تبيد وتصبح فـيئا للمسلمين، وعيشا خصـيبا لهم، يقول زياد ابن حنظلة:

وألقت إلينا الشـام أفـلاذ بطنهـا ... وعيـشا خـصيبـا ما تعـد مآكله

أباح لنا مـا بين شـرق ومغـرب ... مواريث أعـقاب بنتهـا قرامله(٥)

---

(١) الطبرى ج٥ / ٢٣٠٣.

(٢) الطبرى ٥/ ٢٤١١.

(٣) ياقوت ج١/ ١٣٦.

(٤) أسد الغابة ج٥/ ص٣ (ابن قتيبة) ج١/ ص٢٥٣.

(٥) الطبرى ج٥ / ٢٤١١.

٣ ـ معانى إسلامية خالصة

ولعل أكثر الطوابع الإسلامية مباشـرة وأبرزها ظهورا فى شعر الفتوح محاولة تمثل بعض المعانى الإسـلامية الخالصـة، تمثلا قريبـا من صورتها فى آى الذكر الحكيم، كـما حدث فى شـعر النابغة الجـعدى، الذى اتخذ زوال دولة الفـرس موضوعا له، فـصوره معجـزة من المعجزات الباهرة، الـتى وفق الله المسلمين إليها، حـتى ليجعلنا نعـتقد: أنه وضع أمامه آيات بعينها من الكتاب العزيـز، وراح ينظمها نظما، حافظ خلاله ـ جاهدا ـ على ألفاظها.

وهى محـاولة طريفة، إذا تتبـعنا أبياته لنرى إلى أى مدى تمثل هذه المعـانى. يقول النابغة:

الحمـــد لله لا شـــريك له   من لم يقلها فنفسه ظلما(١)

وهذا معنى يتـردد كثيرا فى القـرآن الكريم، من مثل قوله عـز وجل على لسان لقمان وهو يعظ ابنه ﴿يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان] ثم يأخذ فى تعداد الآيات الكونية فيقول:

المولج الليل فى النهار وفى   الليل نهارا يفرج الظلمـــا

وكأنه يعنى قـوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ... ﴿٢٩﴾﴾ [لقمان].

ثم ينتقل إلى آية أخرى من الآيات الكونية فيقول:

الخافض الرافع السماء على   الأرض ولم يبن تحتها دعما

وهذا معنى قوله سبحانه: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ... ﴿١٠﴾﴾ [لقمان] وينتقل إلى معنى آخر فيقول:

الخـالق البارئ المصـور فى الـــ   أرحـام مـاء حتى يـصيـر دمـا

من نطفـــة قـــدرها مـقـــدرها   يخلق منهـا الأبشـار والنســمـا

(١) أسد الغابة ج٥ / ص٣.

ثم عظاما أقامها عصب ثمت لحما كساه فالتأما

ثم كسا الريش والعقائق أبشـ ـارا وجلدا تخاله أدما

وهو يقصد بهذه الأبيات، إلى التدليل على أن البعث حق، وكأنه يعنى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ... (٥)﴾ [الحج].

أو قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (١٦)﴾ [المؤمنون].

ثم يتحدث عن أنعم الله على الإنسان من كساء يوارى به سوءاته، مصداق قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَلِكَ خَيْرٌ... (٢٦)﴾ [الأعراف].

ثم يتحدث من بعد ذلك عن قدرته تعالى، فى اختلاف الخلق، وأصواتهم، وألوانهم، فيقول:

والصوت واللون والمعايش والـ أخلاق شتى وفرق الكلما

ذلك المعنى الذى تعبر عنه الآية الكريمة: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ (٢٢)﴾ [الروم].

وهذا كله من أجل أن يدلل على صحة البعث والنشور ليقول:

ثمت لابد أن سيجمعكم والله جهرا شهادة قسما

فائتمروا الآن ما بدا لكم واعتصموا إن وجدتم عصما

فى هذه الأرض والسماء ولا عصمة منه إلا لمن رحما

openkandil.com

فهو يعنى: إحاطته سبحانه وتعالى بالخلق، وكأنه ينظر فى قوله عز وجل ـ على لسان نوح عليه السلام لابنه حين قال: ﴿قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ... ﴿٤٣﴾﴾ [هود].

وينتهى ليذكر الفاتحين بالمعجزة التى أجراها الله على أيديهم، فى إزالتهم ملك فارس فيقول:

يأيها الناس هل ترون إلى	فارس بادت وجدها رغما
أمسوا عبيدا يرعون شاءكم	كأنما كان ملكهم حلما
أو سبأ الحاضرين مأرب إذ	يبنون من دون سيله العرما[1]

وآية هذا: أن طوابع إسلامية قد طبعت الشعر الإسلامى فى الفتوح من جراء صدوره فى ظروف أثرت فى شكله، ونزعت به إلى التخفف من المقدمات الغزلية والطللية، التى لا تتلاءم مع ما يتحمل الفاتحون من مسئوليات سامية وجادة، وما هم مشتغلون به عما سواه. وقد أتاح هذا للرجز أن يصبح قالبا من قوالب الشعر، يتحمل موضوعات القصائد.

وكان من أبرز الطوابع التى طبعت المضمون الشعرى صدور الشعر عن روح الجماعة الإسلامية، وعن وجدانها الجماعى، الذى استنفد القوميات المحلية والعصبيات القبلية وصاغها صياغة جديدة، فى إطار جديد. كما صدر الشعر عن المثل الإسلامية الرفيعة، وعنى بنقلها، وصور تطبيق النظم الإسلامية فى الأمصار الجديدة.

كذلك طبع الشعر بمثل ما طبعت به النفوس المؤمنة من المشاعر الدينية، والأحاسيس الروحية السامية، التى تجلت فى الإيمان العميق بالله، والحرص على الفوز بما وعد، والاستسلام لقضائه، وما بثه الإسلام فى العرب من اعتزاز بأنفسهم تضاءلت أمامه هيبة الدول، التى تسلطت عليهم بالأمس فأذالوها وسادوها، بما دفعه الإسلام فيهم من روح جديدة، أكدت لهم ضرورة هدايتهم العالمين إلى ما هداهم به ربهم.

وقد اصطبغ الشعر فى ألوانه وضروبه جميعا بصبغ إسلامى، واضح فى معانيه وتعبيراته وألفاظه، وكان من أبرز هذه الطوابع الإسلامية ما حاوله بعض الشعراء من محاكاة المعانى الإسلامية، والتعاليم الدينية وآيات القرآن الكريم.

---

(١) أسد الغابة ج٥ ص٣ ، ابن قتيبة ج١/ ٢٥٣.

الفصل الثالث

الطوابع الشعبية

١ ـ أحاديث البطولة بين الواقع والأسطورة

لا ريب أن أنباء الفتح وأخبار المسلمين مع الفرس والروم وأقاصيص غزواتهم العديدة وما كان يلقى المسلمون هنا وهناك من تقدم أو تقهقر أو عسر أو يسر كان ينتقل بين الميادين المختلفة، وتنعكس أصداؤه على المسلمين فى شبه الجزيرة العربية، حيث كانوا هناك يستشرفون هذه الأخبار وينتظرونها بشغف، ويتتبعونها فى حرص ولهفة، ذلك أنهم وجهوا كل اهتمامهم آنذاك إلى ما قد تتمخض عنه هذه الحركة الهائلة فى تاريخهم وتاريخ عقيدتهم.

وكان هذا الاهتمام يظهر فى وضوح فى أثناء المعارك المهمة والفاصلة، إذ يروى الرواة: أن العرب كانوا يتوقعون وقعة القادسية فيما بين العذيب إلى عدن، وفيما بين الأبلة وأيلة، ويرون أن ثبات ملكهم وزواله بها. وكانت كل بلد مصيخة إليها، تنظر ما يكون من أمرها، حتى إن الرجل كان يريد الأمر فيقول: لا أنظر فيه حتى أنظر ما يكون من أمر القادسية[1].

وكان المسلمون يتلهفون على أنباء المعارك والانتصارات. وكان الفاتحون وكثرتهم من المسلمين العاديين الذين انطلق الشعر على ألسنتهم ولم يكونوا يعرفون به من قبل يسجلون انتصاراتهم ويغتبطون بها، وكان كل هذا يتجمع فى روايات الرواة، فى صورته الأولى التى صدر فيها، والتى لم تصل إلينا على كل حال. إذ إن هذه المرويات المأثورة من أخبار الأبطال وبلائهم، وأفانين بسالتهم، وما يروون لهم أو عنهم من الشعر فى إطار زمنى يحدد سير المعارك قد تعرضت فى صورتها البسيطة الواقعية لغير قليل من محاولات النسج، والسبك والتضخيم، والإغراق، ودخلها كثير من الخيال الشعبى.

---

(١) الطبرى ١/ ٥/ ٢٣٦٤.

فقد ظلت هذه الآثار تتناقل على الألسن زمنا قبل تدوينها. وأسهم القصاص الذين كانوا يتحدثون إلى الناس فى مساجد الأمصار ـ فيذكرون لهم من أخبار المغازى والفتوح ما يمثل لهم أهواءهم وشهواتهم ومثلهم ـ إسهاما خطيرا فى البعد بهذه المرويات المأثورة من الواقع إلى الخيال البعيد.

فقد كان هؤلاء القصاص يمضون مع الخيال إلى حيث يستطيع الخيال أن يذهب بهم، لا إلى حيث يلزمهم العلم والصدق أن يقفوا. وكان الناس كلفين بهؤلاء القصاص، مشغوفين بما يلقون إليهم من حديث[1]. كما كان القصاص كلفين بإرضاء روح الشعب الذى كانوا يتحدثون إليه، والذى يطلب المعجزة فى كل شىء، فعنوا عناية كبيرة بالأساطير والمعجزات وغرائب الأمور، وصوروا له تاريخه وفتوحه كما يحب أن يراها وأن يسمعها ورسموا له صور الأبطال الذين يعجب بهم ويتمثلهم رسما خياليا أسطوريا.

وكانت هذه الأحاديث. شأنها شأن القصص الشعبى كله فى حاجة إلى الشعر، فالبطل لا بد أن يكون شاعرا إلى جانب فروسيته، وعاشقا ومستخفا بكل المصاعب التى يواجهها. وهذه المواقف فى حاجة إلى الشعر، لتزيينها، وتشويق الشعب لسماعها. ورصعت هذه الأحاديث بالشعر، وأضيفت هذه الأشعار إلى الشعراء وغير الشعراء، ونتجت أشعار تنسب إلى غير قائل، وأشعار أخرى تنسب إلى الجن، وولدت الروايات، وامتلأت بالأعاجيب والتهاويل. حتى ليذهب بعض الباحثين المحدثين: إلى أن الأخبار التى استخلص منها تاريخ العرب ليست إلا المظهر القصصى للحياة العربية القديمة، ذكرها العرب بعد أن استقروا فى الأمصار، فزادوا فيها ونموها وزينوها بالشعر[2].

وظلت الروايات هذه تتعرض لعمل الرواة والقصاص، وتتأثر بالظروف التى تروى خلالها، حيث اشتدت العداوة السياسية، وعادت العصبية جذعة عقب الانتهاء من الفتوح، واشتعلت الفتن، ولعبت هذه الظروف ـ فضلا عن تعلق روح الشعب الذى شغف برواية أخبار الفتوح ـ دورها فى تغيير صور هذه الآثار إلى ما يرضى نزعات

(١) فى الأدب الجاهلى / ١٨٩.
(٢) فى الأدب الجاهلى / ٢٠٠.

الشعب، من الإغراب والإعجاب وما يساير نزعات السياسة والعصبية، وبعد هذا كله عن الوقائع، إلى أن أصبحت أساطير أو كادت، حتى دونت فى القرن الثانى الهجرى.

ومن بين هذه العوامل جميعا نجد روح الشعب أكثر فاعلية فى البعد بهذه الأحاديث عن الواقع إذ إن المسلمين الذين تحققت على أيديهم المعجزة فدكوا صروح الفرس والروم بهرتهم المعجزة التى صنعوها بأيديهم، فراح وجدانهم يطلب الإعجاز فى تبريرها، ويسهم بطريق غير مباشر فى رواية تاريخ الفتوح، رواية تشبع مطامحه وترضى اعتزازه، كما يبدو فى تصوير بلاء الفرسان الأفذاذ، كخالد بن الوليد، والقعقاع، والمثنى، وعمرو بن العاص، وأبى محجن الثقفى، وعمرو بن معديكرب، وغيرهم من الأبطال الذين نسبت إليهم أفعال معجزة لا تكاد تصدق. بل إن هذه الأفعال كثيرا ما نسبت إلى المحاربين العاديين. فهذا حياص بن قيس بن الأعور القشيرى، الذى قطعت رجله يوم اليرموك يقتل ألفا من الروم وحده فى هذا اليوم(١).

ولو رحنا نعدد القتلى الذين قتلهم المسلمون من الفرس والروم فى الوقائع المختلفة جميعا لربا مجموعهم على كل ما نعرف الآن من ضخامة الجيوش الحديثة.

ونحن لا نذهب مذهب الشك الخالص فى هذه الروايات، وما احتوت عليه من الأخبار والأشعار والقصص، فإنها على حد زعم المتشككين مظهر للوقائع الحقيقية، تدل عليها وتصورها، وتعطينا صورة لروح الشعب فى ذلك الوقت. وسنرى فيما بعد. كيف لعبت هذه العوامل دورها فى البعد بالروايات وأحاديث البطولة من الواقع التاريخى إلى التاريخ الأسطورى، الذى نسجه الخيال الشعبى.

٢ ـ قصص الفرسان فى الفتوح

روى القصاص أحاديث البطولة فى الشعب، الذى كان يتطلب أن يرى فيها إعجازا وإغرابا يبرران المعجزة التى تحققت له. وكان يحب أن يرى نفسه فى فرسانه الذين حققوا هذه المعجزة. وأفلح القصاص فى نسج هذه الصورة التى بعدت مع الخيال ــ فى بعض جوانبها ــ عن الواقع الحقيقى إلى الأسطورة الخيالية، وصورت له الفرسان المسلمين فى صورة عجيبة وفذة وهى صورة ترضى أحاسيسه بالاعتزاز وتتملق إعجابه بتاريخه.

---

(١) الإصابة ج٢/ ٦٨.

ومن هذه القصص، ما روى فى أخبار القواد والأمراء والفرسان الذين برزوا ببلائهم، واتخذت أفعالهم الفذة نواة صيغت حولها هذه الصور الأسطورية.

تتبعت هذه الأخبار: اجتياح خالد بن الوليد للعراق فى السنة الأولى، وإخضاعه لها، وإجرائه أنهار الدم فى أليس وفم فرات بادقلى، وافتضاضه الحيرة والأنبار وعين التمر، وإنقاذه عياض بن غنم، وفتح دومة، واعتسافه الصحراء إلى مكة ليؤدى فريضة الحج وعودته إلى الحيرة قبل أن يعود جيشة إليها، ثم اعتسافه الصحراء إلى الشام فى خمسة أيام، سلك فيها طريقا غامضا، لايزال موضوع حدس وتخمين لعلماء الجغرافية العسكرية إلى اليوم.

وقد فعلت هذه الروايات فعل السحر فى الناس. فتابعوا خالدا فى الشام فإذا هو بطل اليرموك، وهو الذى تسور دمشق، وإذا هو أحد أركان المسلمين فيها بعد فتح دمشق، وفى القضاء على الفتن فى شمالى الشام.

ولا شك أن هذه الروايات هى التى عزلت خالدا، كما يبدو فى كتاب الخليفة إلى الأمصار، واعترافه بأنه لم يعزله عن خيانة وتقصير، وإنما لأن الناس قد فتنوا به، فخاف أن يوكلوا إليه الأمر، وأحب أن يعلموا أن الله هو الصانع، وأن عمر تمثل بقول الشاعر:

صنعت فلم يصنع كصنعك صانع   وما يصنع الأقوام فالله صانع[(١)]

وقد مر بنا كيف كانت حياة عمرو بن معديكرب أقرب ما تكون إلى الأسطورة، من ترداد لقصص بطولاته وأفاعيله فى القتال، ومنازلة الأقران وشجعان العرب، واستهانته بكل صعب، وما كان من امتداد عمره حتى ينيف على المائة، والرغبة فى جعله ممن شهدوا صفين، ليكون أطول عمرا. كل هذا كان بدافع الرغبة الشعبية فى النزوع بهذه السير والذكريات إلى الأساطير المعجزة، لتكون من دواعى فخر الشعب وزهوه، وإرضاء منازع الفروسية الكامنة فيه، وتأكيد المثل العليا فى الشجاعة والنجدة.

ويظهر ذلك جليا فى التضارب الذى تحفل به الروايات التى تعلل قصائده، لربطها بأخبار فروسيته وشجاعته. ومن هذا القبيل أيضا. ما يذكر فى أخبار أبى محجن الثقفى،

---

(١) الطبرى ج٥/٢٥٢٨.

وما يروى فى خروجه للجهاد من روايات متضاربة. فهو حُدَّ فى الخمر، ونفاه الخليفة مرة، ثم مرة أخرى يشبب بامرأة من الأنصار. وتلعب الروايات دورا كبيرا فى تفسير خروج الشاعر إلى القادسية والتحاقه بسعد، لتفسير حبسه فى القادسية عن القتال، ثم انطلاقته البطولية وتحقيقه النصر للمسلمين، بعد أن يبكى أغلاله ويظهر ما يجيش فى صدره من ضيق لقعوده عن القتال.

وتذهب الروايات مذاهب بعيدة فى تصوير بلائه وقصفه للأعداء، حتى ليظنه المسلمون الخضر يمتطى البلقاء، ويظنه الآخرون ملكا يحارب إلى جانبهم، ويتعجب سعد إذ ترك أبا محجن حبيسا، ولولا أنه حبسه بيده لظن أنه هو[1].

وواضح فيما سلف أن أبا محجن خرج للجهاد قبل القادسية، وأنه شهد الجسر، وأنه إنما حبس لشغبه على سعد. ولكن الروايات تمضى تستكمل جوانب شخصية الفارس فتصوره عابثا لاهيا، مستهينا بكل شيء، يجادل الخليفة فى الخمر جدالا فكها، ويرثيها بشعر روى لأكثر من شاعر[2].

ومثل أبى محجن وما نسج عنه نسجت قصص كثيرة فى مقتل يزدجرد ورستم ومهران، وتنازعت الروايات شرف قتلهم، فتفرق دمهم بين عدد كبير من الفرسان، أمثال: عمرو بن معديكرب، وطليحة بن خويلد وقرط بن جماح، وزهير بن عبد شمس، وعمرو بن شأس، وهلال بن غلفه. وقال كل من هؤلاء شعرا يفخر فيه بقتل أحد هؤلاء القادة العظام.

ومن مصر أتت روايات تتحدث عن بطولات عمرو بن العاص ودهائه، وقدومه إلى مصر فى الجاهلية مرتين، ومشاهده فى الإسكندرية، وما كان من التنبؤ له بفتح مصر، فى قصة وقوع الكرة بكمه فى أحد أعياد القبط[3]. مما يدل على تدخل روح العامة فى الاستشراف والتوقع والتمهيد لفتح مصر على يده. وغير ذلك من القصص التى تكشف عن المثل العربية فى النجدة والوفاء، من مثل: قصة اليمامة التى باضت فوق

---

(١) الأغانى / ٢١ / ١٣٨، ١٣٩، ١٤٠.
(٢) الأغانى ٢١/١٤٢.
(٣) المقريزى ج١/١٥٨.

فسطاطه، عندما عن له الرحيل إلى الإسكندرية، وأمر جنده بأن ينتظروا حتى تنقف اليمامة ويطير فراخها[1].

كما يروى فى فتوح إفريقية، ما كان من قتل ابن الزبير لجرجير فى ثلاثين فارسا فقط، إذ اكتشف منه ثغرة دل عليها عبدالله بن سعد فانتدب معه الفرسان حتى أجهز عليه عبدالله ورفع رأسه برمحه[2].

وتجرى كل هذه الروايات فى تفصيل دقيق، وسرد معجب، كأثر من آثار الرواية والقصص، يتخللها بعض الشعر الذى ينسب إلى هؤلاء الفرسان.

٣ـ أشعار مجهولة القائل

ويذهب بعض الباحثين مذهب الشك فى الأشعار التى لا تنسب لقائل معين، فهى فى رأيهم، نحلت نحلا بفعل عوامل مختلفة، منها السياسة، والخصومات العصبية، وما كان من فعل القصاص.

وفى رأينا أن هذه الأشعار لا يمكن أن تكون قد تعرضت للنحل فكثرتها لا تهدف إلى الإشادة بعصبية معينة، كذلك الشعر الذى انطلق على ألسنة الشعراء المغمورين وغيرهم، ممن لم يكن له كلف أو شهرة بالشعر. وبعضها الآخر الذى يشيد بعصبيات معينة لا يمكن أن يكون منحولا، فإنه يتغنى بعصبيات شهدت الفتوح وأبلت فيها. بل إن هذه القبائل ذاتها كانت أكثر أحياء العرب بلاء فى المواقع الفاصلة فى الفتوح، ونحن لا نستطيع أن نرفضها لهذا السبب، أو نقف منها موقف التشكك، فهى تعبر عن إحساس شعبى داخل هذه العصبيات بالمعركة وخطورتها، وهناك أشعار أخرى صدرت عن هؤلاء المغمورين، الذين لم يعن الرواة بتدوين أسمائهم، لضعف شأنهم فى الشعر، ولأنهم كانوا من عامة الجند وإن شكلوا كثرته.

ومن اللون الأول ما ترويه بعض الروايات: من أن الجن قد سارت بأنباء القادسية فأتت بها ناسا من الإنس فسبقت أخبار الإنس إليهم. وبدت امرأة ليلا على جبل بصنعاء لا يدرى من هى تقول:

---

(١) الولاة والقضاة ص٩.

(٢) أغانى دار الكتب ٦/ ٢٦٦-٢٦٧.

حـيـتك عنـا عكرم ابنة خـالد ... ومـا خـيـر زاد بالقليـل المصـرد
وحيتك عنى الشمس عند طلوعها ... وحـيـاك عنى كـل ناج مـفـرد
وحـيتك عـنى عصبـة نخعيـة ... حـسـان الوجـوه آمـنوا بمحـمـد
أقـاموا لكسـرى يضـربون جنوده ... بكل رقـيق الشـفـرتين مـهند
إذا ثوب الداعى أناخـوا بكلكل ... من الموت مسوّد الغياطل مجرد[1]

وكذلك سمع من تغنى بمثل هذه الأبيات فى اليمامة فقال:

وجـدنا الأكـثـرين بنـى تميم ... غـداة الروع أصـبـرهم رجـالا
هم سـاروا بأرعن مكـفـهـر ... إلى لجـب فـزرتـهم رعـالا
يجـور للأكـاسـر مـن رجـال ... كأسـد الغـاب تحسبـهم جـبالا
تركن لهم بـقـادس عـز فـخـر ... وبالخـيـفـيـن أيامـا طوالا
مـقطعـة أكـفـهم وسـوق ... بمردى حـيث قابلت الرجـالا[2]

وواضح أن الأبيات الأولى تشيـد بفعال نخع بالفرس وتصـفها بأنها عصـبة مؤمنة بمحمـد، حسان الوجـوه ضربوا كسـرى بسيوفـهم وأذاقوه نكالا. بينما تعـدت الأبيات الأخرى حد الفـخر إلى التفاخـر بتميم على سائر الأحـياء، فهم الأكثـرون، وهم أصبر القوم رجالا، وإن أشادت بتميم وبفعالها فى الفرس نفس الإشادة.

وقد يجعلنا هذا نظن أن المقطوعة الثانية كانت ردا على المقطوعة الأولى ولا غرابة أن يكون بعض النخعيين قد أشادوا بنخع فرد عليهم بنو تميم يغلبون صنيعهم، ويتفاخرون على أحياء العرب عامة.

ولكن الغرابة فى نسبة هذه الأبيات إلـى متغنين من الجن. والأغرب من ذلك ما تقرره الرواية من أنه قد سمع بمثل هذا فى كافة بلاد العرب[3].

(١) الطبرى ٥/ ٢٣٦٤.
(٢) الطبرى ٥/٢٣٦٦.
(٣) المرجع نفسه.

ونسبة الشعر إلى الجن فى هذه الرواية ليست أول مرة من نوعها، إذ إن العرب ــ وبخاصة ــ الأعراب والرواة قد لهوا بعد الإسلام بتسمية الشياطين الذين كانوا يلهمون الشعراء قبل النبوة وبعدها، وشجعهم على هذا ما فى القرآن من آيات تنبئ بأن الجن قد استمعوا للنبى ﷺ وهو يقرأ القرآن فلانت قلوبهم. وآمنوا بالله ورسوله، وعادوا فأنذروا قومهم ودعوهم إلى دينه، وأنهم كانوا يصعدون فى السماء يسترقون السمع فرجموا بالشهب، وانقطعت أخبار السماء عن أهل الأرض. ولهذا راح الرواة والقصاص يستغلون هذه المعانى لخدمة أغراضهم، فزعموا ــ من قبل ــ أن الجن قتلت سعد بن عبادة الأنصارى الذى لم يذعن لقريش، ولم يؤمن بأحقيتها فى الخلافة دون الأنصار. وزعموا أيضا أن الجن قالت فى قتله غيلة بأحد أسفاره شعرا. وكذلك انطقت الجن بشعر فى رثاء عمر بن الخطاب، ينسبه بعض الرواة إلى الشماخ بن ضرار وأخويه مزرد وجزء[1]. لا غرابة إذن فى نسبة الشعر إلى الجن، وإنما الذى يستحق النظر وهو ما تؤكده الرواية من أنه قد سمع بمثل هذا الغناء فى كافة بلاد العرب. وهذا ــ فى حد ذاته ــ كفيل بأن يلفتنا إلى مدى توقع المسلمين والعرب عامة للنتائج التى يمكن أن تتمخض عنها القادسية، إذ كان العرب يتوقعونها من العذيب إلى عدن، وما بين الأبلة وأيلة[2]، الأمر الذى يؤكد لنا صدور الأبيات فى أعقاب المعركة، وأنها لم تنحل على أيدى الرواة، وإنما أطلقتها القبائل بدافع المفاخرة فيما بينها.

وتظهر الطوابع الشعبية واضحة فى رواية هذه الأبيات على لسان الجن وتغنيها بها وسماع بلاد العرب كلها هذا الغناء، وتصور أن الجن سارت بأنباء القادسية إلى أهل الجزيرة، فسبقت إليهم نفرا من الإنس، مما يكشف عن تصور شعبى متأثر بقواعد معينة، يخضع لها تفكير العامة عند معظم الشعوب الأولى، كحكايات المردة، وأساطير لقمان، وصقوره، وغير ذلك من المتوارثات الشعبية، فضلا عما بالقرآن من أحاديث الجن. وهذه كلها أشياء مهمة لدراسة الأدب الشعبى، عن طريق محاولة التعرف على نفسية الشعب وثقافته فى الآونة التى وضع فيها الشعر فى هذا الاتجاه.

---

(١) فى الأدب الجاهلى ١٧٠.

(٢) الطبرى ٥/ ٢٣٦٤.

وقريب من أمر هاتين المقطوعتين أبيات من الرجز قيلت فى طاعون عمواس، نسبت إلى غلام أعجمى، تغنى بها خلف رجل عزم على الرحيل فرارا من الطاعون، فقال له:

يأيها المشعر هما لا تهم　　　إنك إن تكتب لك الحمى تحم(١)

وتغنى آخر ـ خلف غلام هرب من البصرة من الطاعون على حمار، فإذا بمن يحدو به:

لن يعجزوا الله على حمار　　　ولا على ذى غرة مطار

قد يصبح الموت أمام السارى(٢)

ونعجب كثيرا أن يكون الحادى أعجميا، ونرجح: أن ذلك من فعل الرواة والقصاصين، الذين أرادوا الإغراب فى كل شىء، حتى لينطقوا الأعاجم بهذه الآراء القدرية التى شاعت بين المسلمين.

أما اللون الآخر من الشعر الذى لا ينسب إلى قائل معين: فهو شعر المغمورين، الذين لم يعن الرواة بتدوين أسمائهم لضعف شأنهم فى الشعر، وكونهم من عامة الجند، وهو شعر كثير، ومعظمه فى تصوير بلاء المسلمين، مثل قول الشاعر:

صبحنا بالكتائب جمع بكر　　　وحيا من قضاعة غير ميل

أبحنا دارهم والخيل تردى　　　بكل سميدع سامى التليل(٣)

أو تصوير قسوة المعارك، كما يبدو فى قول أحد المسلمين:

يارب مهر حسن مطهم　　　يحمل أثقال الغلام المسلم

ينجو إلى الرحمن من جهنم　　　يوم جلولاء ويوم رستم

ويوم زحف الفارس المقدم　　　ويوم لاقى ضيعة مهزم

وخردين الكافرين للفم(٤)

(١) الطبرى ج٥/٢٥٢١.

(٢) نفس المرجع.

(٣) البلاذرى ٢٤٩.

(٤) الطبرى ٥/ ٢٤٧٢.

أو فى فخر جندى بقائده، مثل قول أحد جنود المثنى فى سوق الأنبار:

وللمثنى بالعال معركة ... شاهدها من قبيلة بشر
كتيبة أفزعت بوقعتها ... كسرى وكاد الإيوان ينفطر
وشجع المسلمين أن حذروا ... وفى ضروب التجارب العبر
سهل نهج السبيل فاقتفروا ... آثاره والأمور تقتفر[1]

وكما فخر أحد جنود البراء بن عازب به فى قوله:

قد تعلم الديلم إذ تحارب ... لما أتى فى جيشه ابن عازب
بأن ظن المشركين كاذب ... فكم قطعنا فى دجى الغياهب
ومن جبل وعر ومن سباسب[2]

وكذلك يذهب بعض الشعر فى الرثاء، كرثاء هذا الشاعر لعامة شهداء المسلمين عند نقل رفاتهم إلى مشرق بالقادسية إذ قال:

جزى الله أقواما بجنب مشرق ... غداة دعا الرحمن من كان داعيا
جنانا من الفردوس والمنزل الذى ... يحل به م الخير من كان باقيا[3]

ونجد كثرة من الشعر تنصرف فى باب الحنين وشكوى الاغتراب وتروى بعض الروايات أنه كان مما يترنم به[4]، من مثل قول القائل:

أقمرية الوادى التى خان إلفها ... من الدهر أحداث أتت وخطوب
تعالى أطارحك البكاء فإننا ... كلانا بمرو الشاهجان غريب[5]

(١) البلاذرى / ٢٥٠ ، ياقوت ج٣/ ٥٩٣.
(٢) ياقوت ج٤/٨٨.
(٣) ياقوت ج٤/ ٥٢٩.
(٤) ياقوت ج٢/ ٥١٠.
(٥) المرجع نفسه وانظر ج٢/٢٠٧ / ١٩٩، ج٤/٧٤٧، ص٧٤٨، ٧٤٩.

كما تروى بعض الأراجيز التى ـ كانت النساء والولائد والأطفال يتغنون بها إبان فتح بيت المقدس، وما فعله المسلمون بأعدائهم فى الفترة ما بين جمادى ورجب ـ تقول:

العجب كل العجب بين جمادى ورجب

أمر قضاه قد وجب يخبره من قد شجب

تحت غبار ولجب(١)

ومثل هذه الأرجوزة التى تغنى بها الأطفال والنساء فى الكوفة بعد عزل الوليد بن عقبة، والتى تقول:

يا ويلتا قد عزل الوليد وجاءنا مجوعا سعيد

ينقص فى الصاع ولا يزيد فجوع الإماء والعبيد(٢)

وهكذا ـ نجد هذا الشعر المجهول قائله يتناول نفس الموضوعات التى تناولها الشعر المنسوب إلى قائليه، وإن كان يتميز بمميزات معينة. فهو شعر قليل، ورجز كثير، وتكاد تنعدم فيه روح الفردية، إذ يتغنى الشاعر فيه بلسان الجماعة، ويعبر عن فعالها جميعا، وما تقاسيه فى مجموعها من مشاق القتال، ولا ينفك عن هذه الميزة إلا فى شعر الحنين والشكوى فحسب.

وكذلك يتميز هذا الشعر بروح إسلامية واضحة، تشيع فى معانيه وألفاظه، وفضلا عن هذا فهو بسيط فى أفكاره القريبة، التى تكاد تقرب من التقريرية المحضة، وتكاد ألفاظه تكون نثرا، فيما عدا شعر الحنين، فإننا لا نلمس فيه هلهلة النسيج وضعف البناء، اللذين نجدهما فى بقية هذا الشعر، مما أدى إلى أن يتسم بالصدق والحرارة الشعورية، برغم بساطته وسهولته.

وخلاصة القول: أن طوابع شعبية تسم بعض شعر الفتوح ورواياته وروايات البطولة التى نسبت إلى بعض شعرائها، بفعل اهتمامات أفراد الشعب بهذه الفتوح، وتغنيهم

(١) الطبرى ج٢/ ٢٤١٩.

(٢) الطبرى ج٥ / ٢٨٥٠.

obeikandi.com

بانتصاراتها، ورغبتهم فى تصويرها تصويرا معجبا يرضى نوازع الزهر فيهم. وقد تملق القصاص هذه المنازع بما زادوه فى قصص الفتوح، وما نسبوه إلى فرسانها المشهورين، من أفعال تحولت بسيرهم من الواقع إلى ما يكاد يشبه الأساطير، مما أدى إلى نحل الشعر عليهم، ونسبته إلى الشعراء وغير الشعراء منهم.

وأشعار أخرى نجدها منسوبة إلى غير قائل، تعالج كل موضوعات الشعر التى عالجها الشعراء المعروفون وهى أشعار تطبعها طوابع شعبية، فى تغنيها بروح الجماعة، وتغنى الناس بها، وما يبدو من بساطتها وسهولتها، وقربها من الحديث العادى، مما يؤكد أنها لشعراء من عامة الجند، لم يعن الرواة بالتعرض لهم لضعف شأنهم، وعدم نضج أشعارهم نضجا يؤهلهم للشهرة؛ ذلك لأن الرجز هو أقرب ألوان الفن القولى إلى السليقة العربية لعفويته وسهولته، وأيضا فإن هؤلاء الشعراء لم يكن يهمهم أن ينسب الشعر الذى ينظمونه إليهم، إذ كانوا من عامة الشعب، وعامة الشعب دائما لا يهمهم أن ينسب إليهم فضل أو تمجيد. إنما هى مشاعر ينطقون بها فى بعض اللحظات، ولا يهم من ينطقون بها أن تنسب إليهم أو أن يشاد بهم من أجلها. ومن أجل ذلك لم تعين نسبتها إلى من نظموها، إذ كان ذلك لا يعنيهم فى شىء.

وذلك شىء عام يلاحظ فى الآداب الشعبية أنه لا تتضح فيها النسبة إلى من صنعوها، وكأنها ليست لأفراد معينين، إنما هى للشعب كله، تصور روحه، وتعبر عن شخصيته، وأنها ميراث لجميع أفراده، لا يختص بها فرد دون فرد. ومن خير ما يصور ذلك الأمثال الشعبية، فإنها دائما مجهولة القائل، لأنها من عمل الشعب، وأعمال الشعب لا تسجل تسجيلا فرديا، وكأنما يتلاشى فيها الفرد فى الجماعة تلاشيا تاما.

***

الفصل الرابع

الطوابع الفنية فى شعر الفتوح

١- الأثر الإسلامى فى الصياغة

نستطيع أن نتبين فى وضوح بعد ما عـرضنا من شعر الفتح الإسلامى فى الميادين المختلفة عدة طوابع فنية، تطبع هذا الشعر فى مجموعه، وتوضح معالمه وقيمته التاريخية، وتضعه ـ من ثم ـ فى موضعه من تاريخ الأدب العربى، وشعر الفتح يكشف فى جلاء عن أثر الإسلام كـعقـيدة، وكفكرة فى نفـسيـة العربى. وفى حملـه على أن يبذل وأن يضحى فى سبيلها بكل ما يملك، من روحه وجهاده ونضاله، كما يظهر فى شعر الجهاد وأرجاز الفرسـان. ويصور شعر الفـتوح بالتالى مدى التـغيير الهائل الذى أحـدثته الفكرة الإسلامـية فى الارتقاء بالنوازع الوجدانيـة والقبلية والفـردية الضيقة الحـدود إلى وجدان متوحد من أجل هدف واحد غاية فى السمو، للتكتل فى مواجهة الخطر الخارجى.

وهو يرسم بهذا صورة كاملة للانطلاقة الهـائلة الواسعة، التى انتزعت العربى من حيزه الضيق الحدود لتطوف به فى أرجاء ممتدة، لم يكن استشرفها فى يوم من الأيام.

وتأسيـسا على هذا فإن صـورا رائعة للفروسـية العـربية يمكن رسمـها فى ذلك الإطار الجديد الذى وضـعه الإسلام لتقـاليدها، وصورا رائعة أخـرى يمكن استشفـافها للإيمـان العمـيق، والتصـديق المؤمن بما وعد به المؤمنون المجـاهدون، ولما وضعـه هذا الإيمان بتلك النفـوس، من اكتشافها لـذواتها، ومعرفتهـا بقدرها. ومن ثم راحت تدك بهذا الإيمان معاقل الأكـاسرة والأباطرة، سادة الأمس القريب، وتلوى بأعنة ممالكهم إلى الإسلام.

وهذه الصورة الرائعة الـتى يصورها شعر الفتح للنضـال الصادق من أجل الفكرة الإسلامـية ـ تستمـد ألوانها من المثل الإسلاميـة الساميـة، كالثقة المطلقـة بما وعد الله، والاطمئـنان إلى قضائـه والتسليم به، كـما يبـدو فى شعر الـرثاء، وعلى الأخص فيـما استحدثه المسلمون من رثاء للأشلاء واحتسابها.

وما من شك فى أننا نستطيع كـذلك أن نعتمد علىٰ شعـر الفتح، الذى لم يغادر معركة كبيرة ولا صـغيرة إلا صورها كوثيقة تاريخية عاطفية لهـذه الحركة الخطيرة فى حياة الدعوة الإسـلامية، والشـروع فى بناء حيـاة مستـقرة فى البلدان المفـتوحة، والأمـصار الإسلامية.

وبرغم قصر المدة التى بسط فيها المسلمـون أجنحتهم على هذه المناطق الشاسعة، فإن الشـعر قـد أفلح فى إعطائنا بعض الملامح البارزة لهـذه المناطق، كمـا أنه ألقى إلينا ببعض الضوء على التـزاوج الذى أخذ يحدث بين النفوس العربيـة المنطلقة وتلك الأجواء الغريبة عنهم فى طبيعتها وسبل الحيـاة فيها، فإذا بعض النفوس راضية مطمئنة فى مناطق معينة، وإذا بعضها الآخر لا يقر له قرار فى مناطق أخرى.

وفضلا عن هذا استـطاع شعر الفتح أن ينقل إلينا بعض الانعـكاسات المتولدة عن الاحتكاك البكر بين هذه النفوس وتلك المناطق، وما سقط إليـها من التأثيرات الحضارية، التى اعترضت خبراتهم وثقافاتهم من أثر هذا الاحتكاك.

ورائع جدا هذا الضرب من الشعر. . الذى تغنى فيه المجاهدون الغرباء همومهم فبكوا، واستبكوا أوطانهم التى فـارقوها وخلفوا فيها أحبـاءهم وأهليهم، فى رقة وعذوبة وشجن، لم نعهد له مثيلا فى الأدب العربى من قبل.

ومن نافلة القـول أن نؤكـد أن الشعـر الذى هاجـر فى وجدان المحـاربين وعلى ألسنتهـم إلى هذه البقاع الجـديدة التى رفرفت عليـها راية الإسلام، لـم يكن إلا البذرة الأولى التى أثمرت بعد عـصر استقرار المجـتمعات الإسلاميـة، إذ سكن الفاتحون هذه الأمصار، وزحفت فى أعقاب الفتـوح هجرات غطت الأرض الجديدة، ووسمت إنتاجها فى الشعر بنفس السمات التى حددتها الفتوح، من حيث الكم والكيف.

وليس ثمـة شك فى أن هذا الشعـر اسـتطاع أن يصور جـوانب من حيـاة هؤلاء المتوطنين فى الأمصار، وما اكتنف حياتهم من جراء تطبيق النظم الإدارية الإسلامية، وما كان يعتـرى علاقاتهم بأمرائهم وقادتهم وخلفـائهم، من نقد لسياستهم واتهـامهم إذا ما انحرفوا، وعزلهم إذا ما ثبت انحرافهم.

وإن كنا نؤمن بأن حركة الفتح الإسلامى كانت كل شىء فى حياة المسلمين فى هذا الوقت، وأنها كهدف كبير استوعبت كل اهتمامهم وشواغلهم، فإن الشعر قد صور جوانب هذه الحركة وما رافقها من وقائع وأحداث، وما صاحبها من تغير مادى ومعنوى. وبهذا يكون شعر الفتح صورة صادقة لحياة المسلمين جميعا، فى هذه الفترة الهامة من تاريخهم. ومن ثم فإن هذا الشعر يعتبر بحق جسرا طبيعيا ومنطقيا، عبر عليه الشعر العربى من عصر إلى عصر. وهو على هذا التصور حلقة لا يمكن إغفالها أو إغفال أثرها من حلقات الأدب العربى، أو هى عصر من عصوره كما تعودنا أن نقول.

بل إنه أدق نموذج للنتاج الشعرى الإسلامى. وبناء على ذلك، يعتبر المجال الطبيعى لاستبانة أثر الإسلام فى الشعر العربى. ولهذا فنحن نزعم أن تطورا بفعل هذا الأثر، وتجديدا بدافع منه قد لحقا بالشعر العربى، وظهر ذلك فى شعر الفتح. فقد واكب الشعر حياة المسلمين، وتطور مع أهدافها وغاياتها وسبلها، وصور أضخم جوانبها، وجدد أغراضا وقيما وموضوعات مستحدثة، وتطور بموضوعات قديمة، كما اكتسب لنفسه طوابع فنية معينة اتسم بها.

وهذه الطوابع ليست إلا ظلالا للفكرة الإسلامية ومقتضياتها، وصدى للوجدان الجماعى للمسلمين، وانعكاسا للظروف التى عاشها المسلمون فى فترة من أهم فترات حياتهم وتاريخهم.

وعلى هدى هذه المقاييس الفاعلة فى تشكيل شعر الفتح الإسلامى، يمكننا أن نتبين خصائصه الفنية التى تطبعه فى عمومه.

وأولى هذه الخصائص: أن شعر الفتح شعر ملتزم فلم يكن له إلا أن يكون أثرا للحركة الإسلامية كما أسلفنا. وعلى ذلك فقد خالف عن أن يكون كما كان الشعر الجاهلى أداة لخدمة القبيلة، أو ألهية يتلهى بها الشاعر فى سبيل التسرية والطرب والاستمتاع، وتحول إلى أن يكون أداة اجتماعية، تحفظ تماسك الوحدة الإسلامية، ووسيلة من وسائل صيانة الفكرة الإسلامية وتأييدها.

وبهذا صار للشعر فى الإسلام مفهوم جديد، يكاد يكون التزاما بغايات معينة جند الشعر فى خدمتها لا يتجاوزها ولا ينحرف عنها، بل لا يمكن له أن ينحرف عنها، فمغبة

انحرافه لا تهدد كيان المجتمع الإسلامى فحسب، وإنما تهدد أيضا فكرته وعقيدته وما تدعو إليه فى المحيط العربى، الذى يعطى الشعر قيمة خاصة، ويحتفل به أيما احتفال.

وهكذا لم يكن بد لهذه الجماعة الإسلامية من أن تنزع إلى توجيه الشعر هذه الوجهة، واعتباره أداة اجتماعية، ملتزمة بخدمة المبادئ والغايات المحددة لها، على ألا تنحرف عنها.

وقد كان مقياس المواطنة الإسلامية فى الحياة العربية الجديدة أن ينهج الفرد مناهج السلوك التى رسمها الإسلام، وكان مقياس الصحة والسداد فى القول أن يقول الفرد ما يصلح دافعا للفكرة الإسلامية ومبشرا بها. ومذيعا لتعاليمها. وكان مقياس الشاعرية المسلمة أن يستثنَى صاحبها من الذين يتبعهم الغاوون، والذين يهيمون بكل واد ويقولون مالا يفعلون.

وبناء على هذا الالتزام كانت أهم الموازين النقدية آنذاك هى الاتفاق مع روح العقيدة وغاياتها ومثلها. ولا زالت نقدات النبى ﷺ لشعر النابغة الجعدى، وما ينطوى فيها من استحسانه ودعائه له تؤكد هذه النظرة[1]، وما كان من اتجاه النابغة بعد هذا إلا أن يقول شعرا دينيا خالصا يحاكى به آيات القرآن. وكذلك كان إحسانه إلى حسان وإعجابه به، وبشعر لبيد، وطرفة، لما فيه من معانى تقرب من معانى الإسلام، وظلت هذه الاتجاهات أهم قيمة نقدية فى الميزان النقدى خلال صدر الإسلام وتمسك بها الراشدون، فأعلنوا رضاهم عن كل شعر فيه إشادة بالعقيدة والمثل العليا للأخلاق، التى رسمها الإسلام وأبدوا سخطهم على كل قول يناهض هذه المثل، أو يثير ما نهت عنه، أو يدعو إلى رذيلة، أو يشيع فاحشة، أو حتى يؤثر الدنيا على الآخرة أو لا يجعل الإسلام رادعا للنفوس عن الانزلاق إلى النزوات كما عاب عمر بن الخطاب على شعر سحيم عبد بنى الحسحاس، إذ قدم الشيب على الإسلام رادعا عن العبث، فحرمه الجائزة لهذا السبب[2].

وكان من أضخم تلك الغايات الإسلامية وأهمها، حركة الدعوة الكبيرة التى بدأها المسلمون وانطلقوا بها عبر حدودهم إلى العراق، وخراسان، والشام، وأفريقية ومصر.

---

(١) ابن قتيبة ج١ ص٢٤٨.
(٢) الكامل للمبرد ج١ ص٢٧٢.

وكان على الشعراء الذين استجابوا لهذه التعاليم أن يكونوا فى مقدمة الجيوش الزاحفة أو من خلفها، يقومون بأداء ما التزموا بأدائه.

ووجد الشعراء الذين أحجموا من قبل عن الالتزام بهذه التعاليم، فرصة فى انطلاقهم إلى الميادين جنودا يجاهدون فى سبيل الله، ويفخرون بجهادهم وبجهاد قبائلهم فى نصرة العقيدة، بينما انطلق شعر كثير على ألسنة جنود لم يعرفوا بالشعر من قبل. واتسم هذا الشعر كله بالاتصال بوجدان جماعة المسلمين والصدور عنه، والعزوف عن تقاليد الشعر الجاهلى، ورفض كل ما لا ترتضيه الفكرة الإسلامية، فسكتت النعرات القومية المحلية، وخفت صوت الفخر القبلى، والإسلام وبالجهاد فى سبيله. واندثر الغزل الحسى، وأطيح بالمقدمات الطللية، وما كان يفخر به الفرسان من قبل برواية المغامرات المشتملة على الطرب والشراب والعبث. وإذا بالشعر فى كل أغراضه ومعانيه يتلون بما لا يخدش الغايات السامية، وينطبع بطوابع إسلامية واضحة فى معانيه وألفاظه كما أسلفنا.

ولا ريب أن هذا الالتزام كان يخضع لرقابة المجتمع، وبعبارة أدق لرقابة وجدانه، وكما كان يحدث للمنحرفين من الشعراء عن هذه الجادة فى الجزيرة من سجن كما حدث للحطيئة، ولوم كما حدث لحسان، كان يحدث ذلك لشعراء الفتح، وسكان الأمصار المفتوحة من الفاتحين. فهذا النعمان بن نظلة يعزل عن ولاية دست ميسان، لأنه قال شعرا تغنى فيه بالشراب، وسماع غناء الدهاقين والقيان. وهذا، ذو الكلاع يقع فى حد الخمر، عندما يتغنى بنبيذ الشام، ويكون ذلك سببا فى طبخ كل نبيذ هناك.

وهكذا نستطيع أن نقول: إن طابع الالتزام الذى طبع شعر الفتح غيّر مفهوم الشعر الإسلامى بعامة، وشعر الفتح بخاصة، إذ جعله أداة فى خدمة المثل الإسلامية، والغايات والمبادئ التى تدعو إليها.

وكان لهذا أكبر الأثر فى تلوين أغراض الشعر ومعانيه بلون إسلامى واضح، يتفق وهذا الالتزام.

٢- القصر والإيجاز

وينبع الطابع الثانى، الذى يطبع شعر الفتح، من قيم المجتمع الإسلامى أيضا، ومن ظروف الفتوح المادية والنفسية، ومن التقاليد الأدبية الموروثة كذلك. وهذا الطابع هو الإيجاز والقصر. فشعر الفتح: مقطعات قصيرة فى مجموعه، ونادرا ما نصادف قصيدة

يزيد عدد أبياتها عن العشرة. فقد تخفف شعر الفتح من بعض التقاليد الفنية للقصيد العربى، وأصبح القصيد مقطعات قصيرة، لا تحتوى على أكثر من غرض واحد. والإيجاز طابع كان يحظى بتقدير الفكر الإسلامى، فهذا القرآن الكريم معجزة الفصاحة والبلاغة فى هذا الوقت يبلغ حد الروعة المذهلة فى غير كثير من الإسهاب، أو الاستدلال فيما لا يحتاج إليهما. وهذا الرسول ﷺ: يبغض الثرثارين والمتفيهقين، ويعدهم أبعد الناس منه مجالس يوم القيامة(١).

وهذه ظروف القتال وحياة الجند المليئة بأعباء الفتوح، والحركة الدائبة، وأهوال القتال، وشدائد اللقاء، لا تدعو إلى استقرار، كما لا تساعد على تمهل أو امتداد نفس أو غناء، أو تشقيق للكلام، أو توليد للمعانى، بل إنها لتدعو إلى الإنجاز دعوة ملحة، وتدفع إليه دفعا، وتضطر إليه اضطرارا.

فليس ثمة شىء يريد المجاهد أن يفضى به غير مشاعر اللحظة الوجيزة الحادة، يلقيها دونما إسهاب أو إطالة، فهى مشاعر واضحة وبسيطة، وليست بحاجة إلى بيان أو إيضاح أو إفاضة، كما أنها ليست بحاجة إلى إلحاح على الفكرة أو تقليب لها على وجوهها، أو تشقيقها أو التوليد منها.

وإنما هى بريق خاطف، وانفعال لاهب، وانطلاق راكض، وتعبير مركز مضغوط. وكانت النتيجة تغير صورة القصيدة العربية إلى مقطوعة قصيرة، وأبيات تستوعب الانفعالات الحادة والعواطف الملتهبة، التى تشبه الضربات المتلاحقة فى غير امتداد فى النفس أو تمهل فى الغناء، فانفسح بهذا المجال أمام الرجز بأبياته القليلة لتأدية معانى القصيدة. وقد يجد الشاعر فرصة فى أعقاب المعركة يستشعر فيها على مهل عواطفه، ويتأمل ذاته تأملا مستأنيا، ولكن ذلك كان نادر الحدوث.

٣- العفوية والبساطة:

وهذا الطابع من القصر والإيجاز يسلمنا إلى طابع آخر، اتسم به شعر الفتح نتيجة لانطلاق التعبير وحدته، والقصد إلى الفكرة مباشرة، دون إسهاب، فاتسم الشعر لهذا بطابع العفوية.

---

(١) الكامل للمبرد ج١ ص٤.

ولسنا نقصد بالعفوية، التحلل من كل قيد، أو تقليد فنى، أو نظام. كما أننا لا نعنى بها خلو هذا الشعر من أية قيمة جمالية فنية، إنما نعنى بها انعدام الصقل والتهذيب والمعاودة والمراجعة. وبالتالى انعدام التكلف والتقعر والتعمل. ونتج عن هذا: أن شعر الفتح وبلا استثناء يتسم بالصدق والحرارة الانفعالية، كاستجابة نفسية حرة وطليقة من إسار العناية والصنعة.

وواضح لمن يمعن فى قراءة هذا الشعر أنه ثمرة خالصة للانفعالات النفسية، دون شحذ أو صقل، وأنه استجابة نفسية لما يشعر به الفرد فى تدفق ينساب كانسياب الماء فى المجارى الطبيعية، الخالية من الصنعة المستأنية والتدبير والتصميم السبقى.

وكان ذلك أثرا من آثار القيم الإسلامية الجديدة أيضا تلك القيم التى تستمد من سماحة الإسلام وبساطته، وكراهة التعمل والتكلف، وهى صفات عنى الإسلام بغرسها فى نفوس المسلمين عامة.

وكان النبى ﷺ نفسه قد وصف بها فى القرآن الكريم بأنه لم يكن من المتكلفين: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ۝٨٦﴾ [ص] وعلى هدى هذه القيم، كانت الكفة الراجحة فى الميزان النقدى الإسلامى لما كان جاريا مع الطبع، بعيدا عن التكلف، وكانت الكفة المرجوحة لكل كلام غالى فيه صاحبه وتكلف. فكان التقعير والتشادق عيبا وتصنعا. ولهذا كان النبى ﷺ لا يعجبه السجع المصنوع الذى يستوى لديه بسجع الكهان، والذى كان الكهنة يتصنعونه فى حديثهم عن المغيبات، ليكون لكلامهم وقع لدى العامة[1]. وكذلك كان عمر بن الخطاب ينكر الإغراب والتكلف ومخالفة الطبع[2].

وهو فى الحقيقة إنكار لكل محاولة تهدف إلى التكلف والتشدق، وإعجاب بكل سمح يبتعد عن القسر والاستكراه. وكان لهذه السمة فضل إيثار الشعراء للإفهام فى صورة بسيطة صادقة مطبوعة، دون زخرف أو زينة، ولهذا جاء شعرهم خاليا من أية محاولة مصنوعة للتعمل، وتوافرت عناصر الصدق، وحرارة التعبير، والاقتدار على التأثير، بما لها من سماحة الطبع وجيشان العاطفة وعذوبة التعبير، دون إلحاح على تصوير

---

(١) المثل السائر ص١١٦.
(٢) ذيل الأمالى ص١٤٢.

بيانى دقيق، أو تصيد لتشبيه، أو تعسف لاستعارة، أو استجداء لصبغ أو زخرف. وإنما بتعبيره البسيط، فى صورة بسيطة، تضمن الأداء على أى وجه اتفق.

وجملة القول أن شعر الفتح الإسلامى قد طبع بعدة طوابع فنية ميزته، استمدها من الإطار الفكرى الإسلامى العام، ومن ظروف حركة الفتح الإسلامى الخاصة، التى صدر فى ظلالها، ومن التقاليد الفنية الموروثة.

فهو شعر ملتزم بغايات ومبادئ، يعمل فى خدمتها كأداة اجتماعية وفكرية، وهو شعر قصير وموجز، تنعدم فيه الإطالة والتمهل. كما أنه شعر مطبوع، طبعته العفوية السمحة التى تتنكب التعقيد والالتواء والتقعر بطوابع من سماحة الإسلام، وصدق التعبير وحرارته.

***

obeikandl.com

خاتمة

١ ـ خلاصة البحث

حاولت فى الصفحات السابقة أن أدرس شعر الفتوح الإسلامية فى عصر صدر الإسلام فبدأت بدراسة حركة الفتوح ذاتها، باعتبارها وعاء هذا الشعر، ومهدت لذلك بتجلية الدوافع القوية التى تمثلت فى فكرة الجهاد، فدفعت المسلمين إلى الانسياح فى الأرض ينشرون دعوة الإسلام، واثقين مما وعدوا به من النصر أو الشهادة.

وتعقبت المجاهدين فى انطلاقهم إلى العراق، وما كان للتفكير فى فتحه من صلة، بردة أهل اليمن ودسائس الفرس فيها، واكتساح المثنى بن حارثة لتخوم شبه الجزيرة مساحلا الخليج الفارسى، إلى أن بلغ العراق واستمال بعض القبائل العربية إليه، وشجع ذلك أبا بكر على أن يفتح العراق. فمهد بفتحه بإرسال خالد بن الوليد وعياض بن غنم إليه، واستطاع خالد بن الوليد أن يجتاح العراق رافعا لواء الإسلام فى كل المواقع التى خاضها، ولم يقف فى سبيل تدفعه فرس أو عرب غير مسلمين، حتى حاز سواد العراق، وضاق بإبطاء عياض الذى كان عليه أن يلقاه بالحيرة فخرج خالد للقائه وكان محاصرا بدومة الجندل، وفتح فى طريقه الأنبار، وعين التمر، واستطاع أن يهزم العرب غير المسلمين فى دومة الجندل، وعاد إلى الحيرة ليجد السواد قد انتقض، فأعاده خاضعا لسيطرة المسلمين. وتمكن من أداء فريضة الحج والعودة إلى الحيرة مع جيشه، دون أن يشعر بذلك أحد.

وفى الحيرة جاءه كتاب أبى بكر يندبه لحرب الشام، فخلف المثنى، وفصل بنصف الجند إلى المسلمين باليرموك. وما كاد ابن الوليد يرحل عن العراق حتى ثار أهله بالمسلمين، ولكن المثنى انسحب من الحيرة إلى بابل، واستغل أزمة البلاط الفارسى ليقابل أبا بكر فى المدينة، ويستأذنه فى السماح لمن حسن إسلامه ـ من أهل الردة ـ بالجهاد، وتصادف أن الخليفة التحق بالرفيق الأعلى، بعد أن أوصى خلفه بندب الناس مع المثنى.

وكان أول من انتدب أبو عبيد مسعود الثقفى، الذى لحق فى جنده بالمثنى، حين كان أهل فارس قد قضوا على خلافاتهم، ووضعوا الأمر فى يد رستم. فدس الدهاقين للثورة بالمسلمين، وجهز جيوشا هزمها المسلمون فى النمارق وباقسياثا، وعاود رستم الكرة فجهز جيوشا التقت بالمسلمين فى قس الناطف حيث حدثت كارثة الجسر وهزم المسلمون لأول مرة فى الفتوح، وفر منهم إلى المدينة عدد كبير أحسن عمر استقبالهم، وأمدهم من روحه بما أعاد لهم الثقة بأنفسهم، وراح يندب الناس جاهدا، أو يستصلح بعض القبائل، كبجيلة، والأزد، وبنى كنانة. بينما كان المثنى يستميل بعض نصارى بنى النمر والتقى بالفرس عند أليس وانتصر عليهم وانتهت الخلافات بين رستم والفيرزان فأرسلا مهران فى جند عظيم، ثأر منه المسلمون لشهداء الجسر عند البويب وما لبثت الخلافات بين رستم والفيرزان أن عادت تفرق شمل الفرس، لكن أهل فارس ثاروا عليهما ولم تهدأ الثورة حتى نصب يزدجرد، وتوحدت صفوف الفرس لمواجهة العرب فى وقعة فاصلة. وكانت القادسية التى تعد ملحمة المسلمين، لما كان فيها من بلاء عظيم وفداء صادق، وانتصر المسلمون فيها بفضل إيمانهم، وتثبتت أقدامهم فى العراق. وهزم المسلمون فل القادسية فى بابل، ولم يبق أمامهم إلا المدائن فحازوها، كما حازوا قصور كسرى وأمواله وجواهره.

وبدأ المسلمون يفكرون فى إسقاط فارس، فتم تمصير الكوفة والبصرة بعد أن لم يتلاءم المسلمون مع جو المدائن، فأخذت الفتوحات تترى بعد ذلك، حيث فتح أهل الكوفة الرى وأذربيجان وأرمينية وطبرستان وجرجان، وفتح أهل البصرة الأهواز وتستر ورامهرمز والسوس وجند يسابور.

وبسقوط المدائن انتهت المقاومة الفارسية الرسمية للمسلمين، ولكن بقاء الملك يزدجرد حيا كان رمزا يتجمع حوله الفرس من حين إلى حين، فطارده المسلمون فى حلوان، وفى الرى، وفى قرميسين، ثم فى نهاوند حيث دارت معركة تقرر فيها مصير دولة الفرس نهائيا. وبعد فتح الفتوح لم يلق المسلمون كيدا، فقد راحوا ينطلقون فى أطراف السواد، فحازوا تكريت، وماسبذان، وقرقسيا. وعقدت ألوية المسلمين لإسقاط فارس. فاستطاع الأحنف بن قيس أن يسيطر على خراسان، وحاز عثمان بن أبى العاص

أصطخر، وسارية بن زنيم فسا ودراخرد. وسهيل بن عدى كرمان. والحكم بن عمرو مكران، حتى وصلوا إلى السند.

وتقدم المسلمون يطاردون يزدجرد حتى قتلوه فى الرى. وأمرهم عمر بألا يعبروا النهر فتوقفوا على مضض. وبهذا يكون فتح العراق وفارس قد تم فى عهد أبى بكر وعمر، إذ اقتصر عهد عثمان على تأمين هذه الفتوح فحسب، ولم يفتح فى عهده غير طبرستان، على يد سعيد بن العاص.

ثم رافقت المجاهدين فى فتح الشام الذى اتجه إليه أبو بكر، استكمالا لسياسة رسول الله ﷺ فى تأمين التخوم العربية الشمالية. وقد اقترنت ظروف فتحه بحرب الردة أيضا، فقد أرسل أبو بكر بخالد بن سعيد ليكون ردءا للمسلمين في تيماء، حيث اجتمع إليه بعض القبائل العربية. وكان العراق قد وقع فى أيدى المسلمين، وفتح الله عليهم دومة الجندل، فى الوقت الذى أرسل فيه خالد بن سعيد إلى أبى بكر يستأذنه فى لقاء الروم، وبعد أن استشار أبو بكر أولى الرأى من المسلمين عقد العزم على فتح الشام، فكتب إلى أهل اليمن يستنفرهم، وإلى عماله يخيرهم بين العمالة والجهاد، وأرسل إلى خالد بأن يلقى الروم، وانتصر خالد على الروم وحلفائهم من العرب. وتقدم وأبو بكر يرمى إلى الشام بكل من يقدم عليه، فسير إلى خالد عكرمة والوليد بن عقبة، حيث التقى المسلمون بباهان، فخدعهم عن أنفسهم فى مرج الصفير، ففر خالد، وانحاز عكرمة بالمسلمين، حيث لحق به الوليد. ولما بلغت الهزيمة أبا بكر اهتاج للشام، فعقد ألوية أربعة لأبى عبيدة، وليزيد بن أبى سفيان، ولشرحبيل بن حسنة، ولعمرو بن العاص. وعين لكل منهم وجهته، والتقى الأمراء الأربعة بعد أن وكل الروم بكل منهم جيشا، وخشوا أن يلقوا الروم على انتشار، وكان رأى الخليفة أن يجتمعوا.

وفى اليرموك التحق بهم خالد بن الوليد، حيث كان النصر فى أول يوم تأمر فيه. وتقدم المسلمون يحاصرون (فحل) فلما استعصت عليهم قصدوا دمشق ففتحها الله عليهم، وعادوا ففتحوا (فحل) وسيروا كتيبة العراق بقيادة هاشم بن عتبة بن أبى وقاص. كما سارت حملات لتطهير الأردن، ففتح شرحبيل وعمرو بيسان، وأبو الأعور السلمى طبرية. وصالحت أذرعات وعمان وجرش ومأرب وبصرى. وحاول الروم استعادة

دمشق فقضى خالد ويزيد على محاولتهم، وانطلق أبو عبيدة يطاردهم، وحاصر بعلبك، وانتهى إلى حمص، وكان هرقل قد فر منها إلى أنطاكية، وبعد حصار طويل سلمت المدينة وسلمت حماة واللاذقية بعد ذلك. وفتح خالد قنسرين، وسلمت حلب لأبى عبيدة، وسلمت أنطاكية بعد أن فر هرقل إلى الرها، وأقام فيها حامية، بعد أن أخمد عياض ثورتها. ولكى يتصل الشام بالعراق بدد أبو عبيدة شمل عرب الجزيرة، وفتح قورس، وفتح خالد مرعش، وكان يزيد قد فتح بيروت والثغور المجاورة. ويئس هرقل، فترك الرها إلى القسطنطينية، حيث التحق به جبلة بن الأيهم بعد أن ارتد.

وبينما كان أبو عبيدة يجتاح الشام، كان عمرو وشرحبيل يواجهان الأرطبون فى فلسطين، حيث أرسلا معاوية لفتح قيسارية، حتى لا يأتى المدد منها لأرطبون. ووجها علقمة بن حكيم ومسروقا العكى إلى إيلياء، وأبا أيوب المالكى إلى الرملة، لتتبدد قوى الأرطبون بين هذه المناطق. والتقى عمرو بالأرطبون فى أجنادين، حيث اندحر الروم وفروا إلى بيت المقدس.

ورأى عمرو أن يقطع عليهم خط الرجعة من ناحية البحر، فأرسل حملات فتحت رفح، وغزة، وسبسطية، ونابلس واللد، وعمواس، وبيت جبرين، ويافا. وحاصر عمرو بيت المقدس، وبعد استماتة المدينة فى الدفاع طلبت الصلح، واشترطت حضور الخليفة، حتى يمكن للروم الانسحاب إلى مصر.

ولم يعترف الروم بضياع سلطانهم على الشام، ولم ييأسوا، فحاولوا استعادتها، فرتبوا مع القبائل العربية فى شمال الشام مؤامرة رافقت وصول حملة قسطنطين إلى أنطاكية، ووجد المسلمون سلطانهم على الشام مهددا بالضياع، واهتم الخليفة عمر بالأمر، فأمد أبا عبيدة، وأفلح المسلمون فى عزل العرب عن الروم وانفردوا بهم، حيث لقنوهم درسا وألجأوهم إلى الانسحاب.

ولم يكد المسلمون يفرغون من الروم حتى حدث وباء الطاعون، وصادف ذلك مجاعة بشبه الجزيرة. وأضر الطاعون بالمسلمين، فراح ضحيتّه خمسة وعشرون ألفا منهم. وكانت أقدام المسلمين قد ثبتت فى الشام، ولكن حملة قسطنطين أكدت لهم أن بقاء مصر فى يد الروم أمر لا تحمد عقباه، ومن ثم راح عمرو بن العاص يلح على عمر فى الجابية بفتح مصر.

obeikandi.com

وصادف فتح مصر ترددا من الخليفة بادئ الأمر، ولكن عمرا استطاع أن يقنع الخليفة بالمكاسب التى يمكن أن تعود على المسلمين من جراء فتحها، وبسط له أمر الخلاف المذهبى بين الحكام والمحكومين، وما يعانيه المصريون من عسف الروم، وما يرزحون تحته من أعباء الفتن والضرائب والمكوس، والاضطهاد الدينى الذى يلقاه المصريون اليعاقبة من محاولة هرقل فرض مذهبه الجديد، الذى ابتكره له سرجيوس، للتوفيق بين الملكانية واليعقوبية، فضلا عن الاضطهاد الاجتماعى والسياسى الذى يتعرض له المصريون، نتيجة للسيطرة الرومية على أمور المصريين جميعا.

وسار عمرو إلى مصر، حيث أدركه كتاب عمر الشهير بقرية من قرى العريش، فسار على بركة الله، واخترق رمال سيناء إلى العريش ففتحها ثم اتجه إلى الفرما فافتتحها، وكانت بمثابة مفتاح مصر. وبعد حرب دامت شهرا استولى على بلبيس، وهزم الروم بها هزيمة بالغة. ومضى عمرو حتى أتى أم دنين، وهى قرية على النيل شمالى حصن بابليون، وتعتبر مسلحة للحصن الذى لاذ به الروم، وتجهزوا لحرب فاصلة. وحاصر عمرو أم دنين، وأرسل يتعجل المدد فوصله فى الوقت المناسب، حيث استطاع المسلمون فتح أم دنين، ومنها استقلوا سفنا كانت راسية بمرفئها وعبروا النيل إلى الغرب، حيث انتطروا فى الفيوم على حنا، وعادوا سراعا ليلتقوا بأمداد جديدة فى هليوبوليس حيث عسكروا بعين شمس.

وخشى الروم أن يظن بهم المصريون الخور أمام المسلمين إذا ظلوا ملازمين لبابليون فخرجوا إلى المسلمين، وأقام لهم عمرو كمينين فى طريقهم عصفا بهم. واحتل المسلمون حصن أم دنين كرة أخرى، وكان فل الروم قد لجأ إليه، وحاصر عمرو بابليون، وأرسل حامية استولت على إقليم الفيوم، وحامية أخرى استولت على إقليم المنوفية، والروم يفرون هلعا إلى الإسكندرية.

وحال ارتفاع النيل بين المسلمين والحصن، وتراشق الروم والمسلمون بالسهام والمنجنيق، ولم ييئس المسلمون بعد شهر فرأى المقوقس أن يصالحهم، ولم تجد المفاوضات، واقتتل الفريقان حتى ألجأ المسلمون الروم إلى الصلح، وعلق نفاذه على موافقة هرقل، ولكن هرقل رفض وعزل المقوقس وعاد القتال بين الفريقين كرة أخرى

واستمر الحصار سبعة أشهر، حتى خشى عمرو أن يضيق جنده، فوهب الزبير نفسه وتسور الحصن ففتحه الله عليهم، وانفتح الطريق أمام المسلمين إلى مصر السفلى. واستجاب القبط للمسلمين فعاونوهم فى تمهيد طرقهم إلى الإسكندرية، على الرغم من فيضان المياه.

واستغرق مسير المسلمين إلى الإسكندرية اثنين وعشرين يوما، اصطدم فيها المسلمون بالروم فى ترنوط عند فرع رشيد، وعند الكوم وفى سنطيس، وانتصر المسلمون فى هذه المصادمات. ثم التقوا مع الروم فى وقعة الكريون، حيث اقتتلوا عشرة أيام متصلة قتالا عنيفا، إذ كانت الكريون آخر سلسلة من الحصون قبل الإسكندرية. وكانوا فى الحقيقة يدافعون المسلمين عن التقدم إلى الإسكندرية، واستبسلوا فى الدفاع حتى صلى عمرو صلاة الخوف ونصر الله المسلمين.

وأبلت الإسكندرية فى الدفاع أمام المسلمين، الذين لاقوا شدة من منجنيقاتها وحصانتها. وتنبأ عمرو بطول الحصار، فأرسل حملات لتطهير الدلتا. وبرغم توقف الإمدادات وموت هرقل لم تيئس الإسكندرية. وكان عمر فى المدينة حنقا لإبطاء الفتح، فأرسل كتابا عنيفا إلى عمرو قرأه فى جنده، وعقد لواء الإسكندرية لعبادة ففتحها الله عليه. وأسرع المقوقس ليعقد الصلح مع عمرو.

وذهل المسلمون أمام روعة الإسكندرية وراحوا يستقرون بمصر، وابتنوا الفسطاط، ولكن الروم عادوا كرة أخرى كما فعلوا بالشام يحاولون استعادة مصر بحملة قادها مانويل، فاحتل الإسكندرية، وتقدم إلى الدلتا. وانتدب عثمان بن عفان عمرا رائد فتح مصر فأذاق الروم هزيمة منكرة فى الإسكندرية، ثم هدم أسوارها، وارتدت الحملة خاسرة لكن الروم عادوا بعد ذلك يحاولون نفس المحاولة بعد تسع سنوات فى مشروع قسطانز، لاستعادة مصر والشام، وأوقع العرب بهم، ولقيت فلولهم عاصفة أتت عليهم فى البحر.

ولم يستطع المسلمون أن يتقدموا فى بلاد النوبة بعدما لاقوا فى المعركة التى قادها عقبة بن نافع ــ إذ رجع المسلمون وقد أصابت سهام القوم أحداقهم، فاتجهوا إلى

الغرب. وفتح عمرو بعد فتح الإسكندرية، برقة وطرابلس، ثم بعث بنافع ففتح زويلة، وأراد الانسياح فأوقفه الخليفة، فاستدار يتوسع فى المناطق الداخلية فحاز فزان، وودان، وسبرت.

وفى عهد عثمان، استطاع عبدالله بن سعد بن أبى سرح ــ والى مصر ــ أن يهزم جرجير ويفتح أفريقية، ولكنه بعد حرب دامت شهورا يتركها عائدا إلى مصر، بعد أن بلغته أخبار حملة مانويل ــ على ما نظن ــ ولكن ما نلبث حتى يتلألأ اسم عقبة بن نافع فى هذه المنطقة فيما بعد عصر الراشدين.

وقد تبين لى، أن تصنيف الجيوش والإمدادات التى فتحت هذه المناطق الشاسعة كان له أثر بعيد فى كثرة الشعر على ألسنة الفاتحين فى الميدان الشرقى، ذلك أن الجيوش التى وجهت إلى هذا الميدان كانت نزارية. فكتيبة المثنى كانت تضم قبائل بكر وإياد وتغلب والنمر. وكتيبة خالد كانت كثرتها من المهاجرين والأنصار، وفيها قوم من طيئ وجديلة. وانتدب أمراءه الأربعة: حرملة، وسملى، والمثنى، ومذعورا، وكانوا فى ثمانية آلاف من ربيعة ومضر. وكانت كتيبة عياش من ربيعة ومضر أيضا.

وكان لواء أبى عبيد من الأنصار، ولحق به بعض المتطهرين، واستطاع المثنى أن يستميل نصارى بنى النمر، ثم كان جيش الثأر مكونا من بجيلة، والأزد، وكنانة، فى سبعمائة، ولحق بهم نفر من الرباب، ونفر من بنى سعد، ومن خثعم، ومن بنى حنظلة، ومن بنى ضبة، وناس فى عبد قيس، والنمر، وتغلب.

وكان جيش سعد بن أبى وقاص إلى القادسية مكونا من ألف، من قيس عيلان، وألف وخمسمائة من بارق، وألمع، وغامد، وألف من نخع. وأمده عمر فى الطريق بألفى يمنى، وألفى نجدى من غطفان وسائر قيس، ولحق به ألف وسبعمائة من أهل اليمن. وتتام جيش القادسية بعد انضمام جند المثنى، وعدته عشرون ألفا، منهم ثمانية آلاف من ربيعة، وأربعة آلاف من حلفاء المثنى، وأربعة آلاف من جند أبى عبيد، وألفان من بجيلة، وألفان من طيئ، وستة آلاف من جند خالد الذين قدموا من اليرموك. فتتام جنده فى القادسية ستة وثلاثين ألفا، كثرتهم من عرب الشمال النزاريين.

ولما استوطن العرب الكوفة والبصرة ظهر فى تخطيطها غلبة عرب الشمال على عرب الجنوب، مما كان له أكبر الأثر فى كثرة الشعر على ألسنة الفاتحين، حتى ليخيل إلى الدارس أن الفاتحين جميعا كانوا شعراء دون استثناء، إذ أصبح الشعر أو كاد يكون حظا مشتركا بين جميع الفاتحين. فشكل شعر الفتح فى الميدان الشرقى كثرة شعر الفتوح، ثم راح يسجل أحداث الفتح وسيره خطوة خطوة، فلم يغادر معركة، ولم يترك صداما، ولم يقصر عن تسجيل حوادث الفتح جميعها، تصويرا شاملا ودقيقا، حتى ليمثل وثيقة تاريخية واجتماعية خطيرة فى هذا الميدان.

والأمر يختلف فى الشام، فلواء خالد بن سعيد كانت كثرته من قبائل العرب الضاربة فى تخوم الشام، كقضاعة، وكلب، وجهينة، وعذرة. وعندما استأذن فى لقاء الروم راح أبو بكر يستنفر أهل اليمن فأجاب دعوته وجوه اليمن، كذى الكلاع فى حمير، وقيس بن هبيرة فى مذحج، وجندب بن عمرو فى الأزد، وحابس بن سعد فى طيئ ورافق قدوم كتاب خالد قدوم عكرمة فيمن معه من تهامة وعمان والشحر والبحرين، فبعث بهم أبو بكر إلى خالد، واستنفر الخليفة عماله ليستنفروا من حولهم، فاستجاب لعمرو خلق كثير من عمان، واستجاب للوليد جموع من قضاعة. وأمر أبو بكر يزيد بن أبى سفيان على ألف من أهل مكة، كما أمر أبا عبيدة على جند عظيم من المهاجرين والأنصار.

وكان جيش عمرو الذى فتح مصر من جند الشام. ويجمع المؤرخون على أنه كان يمنيا من عك أو من عك وغافق، وانضم إليه بعض الأبناء وعرب سيناء القضاعيين، وقوم من بنى راشدة، وأناس من لخم. ولو رجعنا إلى تسمية القبائل فى الخطط التى نزلوها فى مصر لاتضح لنا أن كثرة هذه القبائل من عرب اليمن، الذين ظلوا غالبين على من سواهم من العرب، حتى ولاية عبدالعزيز بن مروان، الذى ضاق ببلد ليس فيه أحد من بنى أمه.

وكانت نتيجة غلبة اليمن على جند مصر والشام، أننا لا نكاد نجد فى الشعر صورة كاملة للفتوح فى الشام كهذه التى رأيناها فى العراق، فالشعر فى الشام لم يستطع أن يصور جوانب الفتوح تصويرا شاملا ولا دقيقا، بينما لا نكاد نجد فى مصر شعرا على

الإطلاق، سوى ما كان من آثار الهذليين، وهى أبيات قليلة لأبى ذؤيب فى إفريقية، وقصيدة وحيدة لأبى العيال الهذلى، قالها فى حملة «قسطانز»، وقد لاحظت أن لكون المؤرخين ورواة الشعر عراقيين دخلا فى عدم الاهتمام بتدوين شعر مصر والشام والعناية به.

وبعد أن درست الشعر فى الفتوح على هذا النمط حاولت أن أتعرف على شعراء الفتوح الذين خلفوا لنا هذا الشعر. وإذا بالإسلام يغير مظاهر الحياة العربية جميعها، ومنها الشعر، فيحدد له قيما تتفق وتعاليمه، فإذا بنفر من الشعراء يقوم بها خير قيام، وإذا بنفر آخر لا يستطيع أن يواكب هذه القيم وتلك المهام، فيخفت صوتهم إلى حين. ويعلو صوت القرآن، إذ يجد فيه المسلمون بغيتهم. وعندما يتدفق المجاهدون إلى الفتوح تذكو جذوة الشعر العربية وتنطلق ألسنة الشعراء بما حبس فى نفوسهم زمنا، عندما يقفون مواقف قريبة من مواقفهم القديمة مع فارق الهدف. وتفتح الفتوح أمامهم آفاقا واسعة، وتمدهم بتجارب كثيرة وحافلة بألوان من العواطف والمشاعر، كأنما أطلقت عقدة ألسنتهم، وأسعفتهم التجربة الشعورية الضخمة، فشارك فى الفتوح شعراء ناضجون، كأبى محجن الثقفى، وعبدة بن الطبيب، وربيعة بن مقروم الضبى، وعمرو بن معديكرب الزبيدى.

وشعر هؤلاء يتميز عن شعر غيرهم بأصالته ونضجه، وغلبة الفخر الفردى على الفخر بجماعة المسلمين، كصدى لإحساسهم القوى بأنفسهم. وللأسف لا يمثل شعر هؤلاء الشعراء إلا قدرا قليلا جدا من شعر الفتوح، برغم طول القصائد التى تروى لهم فى الفتوح، كاللامية المنسوبة لعبدة، واللامية الأخرى المنسوبة لربيعة بن مقروم الضبى.

وقد تبين لى أن هاتين القصيدتين وغيرهما من شعر القدماء قد استغرق نظمهما عصرين مختلفين، بمعنى أن أبياتا قليلة تتحدث عن الفتوح فى القصيدة لا تبرر القصيدة كلها، التى يتحدث الشاعر فيها عن أشياء حظرها الإسلام، كالخمر واللهو والعبث بالنساء والطرب والغزل الحسى. واستنتجت من ثم أن تكون أبيات الفتح قد ضمت إلى القصيدة الجاهلية فيما بعد الفتوح. وأكد هذا، اختلاف شعر الفتح فى شكله وفى مضمونه عن شكل أمثال هاتين القصيدتين، وما هو بين من اختلاف فى الصياغة بين

الأبيات الإسلامية والقصيدة برمتها، حتى لتبدو هذه الأبيات غريبة فى مكانها من القصيدة، كما أكد ذلك ما هو جلى من خلاف بين القصيدة، وما هو ثابت من شعر إسلامى، منسوب للشاعر فى المضمون والصياغة.

والمزج الذى حدث فى شعر هذين الشاعرين بين الإسلامى منه والجاهلى حدث فى أخبار ابن محجن الثقفى، إذ حاولت الروايات ــ بتأثير النزعات الشعبية ــ رسم صورة مغرية للشاعر الفارس، مزجت فيها أخبارا بأخبار، وأولت أحداث حياته فى الفتوح تأويلات تخدم هذه الصورة المغرية.

وقد يبدو جليا أن هؤلاء الشعراء القدامى لا يتسع تأثير الإسلام عندهم، على حين لا نجد لغيرهم شعرا على الإطلاق.

وإلى جانب هذا الجيل القديم من الشعراء نبت جيل آخر فى حقل الفتوح، وهو جيل يختلف عمن سبقه من الشعراء فى حظه من النضج، ومدى إسهامه فى التعبير عن أحداث الفتح ومشاعره، وكثرة الشعر الذى انطلق على ألسنتهم، حتى ليخيل إلى الدارس أن الفاتحين جميعا استحالوا شعراء فى الفتوح.

وهؤلاء الشعراء الذين أنطقتهم الفتوح ينقسمون فى تصورنا إلى قسمين قسم مغمور كان له كلف بالشعر القديم وإن لم يعرف به، أو يذع له ذكر، بدليل هذا النضج الذى نجده فى شعرهم، وهذا الإنكار الذى نجده لأسمائهم وحياتهم فى تاريخ الأدب، لانعدام رصيدهم الفنى قبل الفتح. ورغم هذا فإن دورهم هو الدور الرئيسى فى التعبير عن أحداث هذه التجربة.

والقسم الثانى ــ من هؤلاء الشعراء الذين أنطقتهم الفتوح ــ يشكل ظاهرة جديرة بالنظر، إذ لم يكن منهم أحد يرتبط ارتباطا ما بالشعر، وكانت أول علاقتهم به يوم أن حملوا السلاح وخاضوا المعارك فإذا بأنفسهم تجيش بالشعر فينطلق البيت أو البيتان، تنفيسا خالصا.

وهؤلاء يمثلون السواد الأعظم من الفاتحين، وشعرهم ليس إلا استجابة حرة لتجاربهم ومشاعرهم، ولكثرتهم وتشابه ظروفهم اختلط شعرهم فيما عدا من كان منهم قائدا أو أميرا، فحافظت شهرته الحربية على شعره.

ومن الشعراء القدامى أخذت أنموذجا، عمرو بن معديكرب الزبيدى الشاعر الفارس الشهير، فإذا حياته الجاهلية تمثل شعره الجاهلى تمثيلا صحيحا، وشعره يدل على حياته دلالة واضحة، أما حياته فى الإسلام فلا يكاد شعره فى الفتوح يحدد جوانبها أيما تحديد. ويلاحظ الدارس نفس الملاحظة، التى يمكن ملاحظتها فى شعر عبدة وربيعة. كما يلاحظ أن شعره لم يتأثر تأثرا ما بالإسلام، ولم يكتسب خصائص إسلامية من واقع الحياة التى عاشها فى الفتوح. فإن شعره القليل الذى خلفته الفتوح لا يكاد يفترق فى شىء عن شعره الجاهلى، وإن مال إلى التقريرية، ولكنه احتفظ بخصائص قديمة له كحرارة التعبير، ولا يخرج الأمر عنده عن استبداله أياما إسلامية بأيام جاهلية.

ويتضح ما بين هذا الجيل القديم والجيل الجديد من الشعراء الذين أسهموا فى التعبير عن حركة الفتح حينما يستعرض الدارس أنموذجا للشعراء الذين نضجوا فى أثناء الفتوح، كالقعقاع بن عمرو التميمى، فحياته فى الفتوح واضحة فى شعره وضوحا كبيرا، ومفصلة فيه تفصيلا دقيقا، إذ هو فتى أشربت روحه الإسلام، وباع حياته خالصة فى سبيل الجهاد، واستمات فى نصرة الدين يزجو به وجه الله فحسب، فى حين رأينا عمرا يبغى أن يحافظ على مجد قديم، وشجاعة سارت بذكرها الركبان فى الجاهلية. ولهذا فإن شعر القعقاع مرآة لحياته الباسلة فى سبيل الله، كما أنه مرآة للفتوح بأسرها. ومن ثم يمكن أن يكون شاعر الفتوح بلا منازع، إذ تتمثل فيه كل خصائص شعراء الفتح، ويجمع شعره كل طوابع شعر الفتوح.

فإذا ما أراد الباحث بعد هذا أن يتبين ماهية هذا الشعر ومقوماته وطوابعه فإنه يتبين قبل كل هذا خطر شعر الفتح، ودوره فى نجاح هذه الفتوح، مما يكشف عن القيمة الفاعلة للأدب فى صنع الحياة، وما كان من استيعابه للطاقات النفسية التى أضرمت فى نفوس المجاهدين.

وهذا الشعر ينقسم إلى لونين من حيث شكله هما: القصيد والرجز الذى انفك عن دوره القديم كوزن من أوزان الشعر، له مهمة خاصة فى الحداء والحروب والمفاخرة، إلى أن صار قالبا من قوالب التعبير الفنى كالقصيد سواء بسواء فقد كان أداة كثرة الشعراء المغمورين، الذين عبروا فيه عن أنفسهم تعبيرا بسيطا، يتناسب ومدى النضج الذى يتمتع

به شعرهم. وكان أيضا قالبا اتسع لموضوعات القصيد، نتيجة لاستخدامه على هذه الصورة، فقاسم القصيد ألوانه وموضوعاته، إلى جانب قيامه بدور الطبول التى تقرع لتحميس الجند، وإشعال أوار الحروب. وقد فسح للرجز أن يشارك القصيد فى موضوعاته، نتيجة لما أصاب القصيد من انكماش فى شكله، لظروف القتال واضطرابها وقلقها ولما حظره الإسلام من الغزل وغير ذلك مما يجافى طبيعة الظروف الجادة فى المعارك. فاستحال القصيد إلى مقطعات قريبة فى شكلها من الرجز، وتخفف القصيد من المقدمات والغزل وما إلى ذلك من التقاليد الفنية القديمة، وأصبحت مقطوعات القصيد تشتمل على غرض واحد، ومستقل كالرجز سواء بسواء.

ومن بين الموضوعات التى جال فيها شعر الفتح موضوعات قديمة فى الشعر العربى، كالفخر والرثاء، ولكننا نجدهما يتطوران فى شعر الفتح، إذ يتطور الفخر القبلى الذى يقوم على المفاخرة بالأحساب والعصبيات والنعرات إلى شعر يفخر فيه المجاهد ببلائه وبطولته فى سبيل فكرة الجهاد من أجل العقيدة التى يؤمن بها، ويتعدى ذلك إلى استشعار الشاعر وجدانا جماعيا للمسلمين يصدر عنه، سواء أتغنى به أم تغنى بفرديته كعضو فى إطاره.

وتشيع فى هذا الشعر معانى الفداء والتضحية والإيمان بنصر الله، كما يشيع فيه إخلاص للفكرة الإسلامية، ورفض لما عداها من زخرف الدنيا. وقد قاسم الرجز القصيد فى هذه المعانى فى حين تطور الرثاء من الإشادة بالفقيد ــ وما كان يتمتع به من صفات المروءة الجاهلية ــ إلى أن يصبح تعبيرا عن الإيمان المؤكد بالموت ووجوبه، والتسليم به، والصبر عليه، واستشعار ما أعده الله للشهداء، فضلا عن الإشادة ببطولة الشهيد، وما قدم فى سبيل الله من تضحيات، إشادة تتصل بالفخر والجهاد اتصالا وثيقا. وبرغم قلة الرجز الذى ذهب هذا المذهب فإنه يعبر عن مدى التطور الذى أصاب الرجز الجاهلى فى رثاء المحاربين، وقد استجد فى الرثاء لون طريف صوره الشعر والرجز، ذلك أن بعض المجاهدين راحوا يرثون ما كانوا يفقدون من أعضاء أجسادهم وأشلائهم، رثاء يمتلئ بصور من البسالة والاستهانة بما فقدوا فى سبيل الفكرة، أمام ما أفقدت العدو من أرواح وأعضاء ولا يستشعر الراثى أى شعور بالحسرة، إلا بسبب حرمانه من الجهاد. بسبب ما فقد من أعضاء جسده.

ويرى الدارس لشعر الفتوح موضوعات جديدة لم يعرفها الشعر العربى من قبل، نتيجة لنزوح المجاهدين إلى بيئات بعيدة ومختلفة عن مواطنهم، فكان أن أحسوا بالغربة، وامتلأت صدورهم بشجى الابتعاد عن مواطنهم وأحبائهم، وراحوا يبكون غربتهم وحرمانهم فى حنين شجى حزين، يذكرنا ببكاء الأطلال فى الشعر الجاهلى. كما راحوا يعبرون عن مشاعرهم بإزاء البيئات الجديدة، ويصورون مدى التزاوج بين نفوسهم وبينها. وكثر الشعر الذى يتشوق فيه المحاربون إلى نجد، ويذمون فيه مواطنهم الجديدة. وهرب بعضهم إلى الطبيعة فبثها شجوه فى شعر رائق، ولم يستطع الرجز بما أوتى من نغم جهورى أن يعبر عن مثل هذه المشاعر المهموسة.

وحظيت المشاهد الغريبة التى عاينها الفاتحون بالتفاتهم فصوروها، وصوروا انطباعاتهم بإزائها، فوصفوا الطبيعة فى بيئاتهم الجديدة، وبردها وثلجها. ووصفوا الفيلة وغرابتها وشدة قتالها. ووصفوا ما عانوا من الأوبئة والحشرات، وما تعرضوا له من عبور الماء وركوب البحر، وما ذاقوا من الأطعمة والأشربة الفارسية، وما آل إليهم من الفىء والمغانم، وما رأوا من ألوان الحضارة الفارسية المختلفة فى الملبس والحديث، وما انزلق إليه بعضهم من العبث والسماع والطرب والخمر. وواكب الرجز شعر القصيد فى هذه الموضوعات جميعها.

وانطبع شعر الفتوح فى مجموعه بطوابع إسلامية واضحة فى شكله ومضمونه. ومن أبرز هذه الطوابع، صدور الشعر عن روح الجماعة الإسلامية ووجدانها الجماعى، الذى استوعب النزعات القومية المحلية، والعصبيات القبلية، فطواها وصاغها صياغة جديدة فى إطار جديد، كما صدر عن تلك المثل الإسلامية الرفيعة وعنى بتمثلها، وصور تطبيق النظم الإسلامية فى الأمصار الجديدة.

وانطبع هذا الشعر أيضا بما انطبعت به النفوس المؤمنة من المشاعر والحرص على الفوز بما وعد، والاستسلام لقضائه. وما بثه الإسلام فى العرب من ثقة بأنفسهم واعتزاز تضاءلت أمامه هيبة الدول التى تسلطت عليهم بالأمس فأدالوها وسادوها، بما دفعه الإسلام فيهم من روح جديدة، أكدت لهم أن الله اصطفاهم لهداية العالمين إلى ما هداهم به.

واصطبغ الشعر كذلك فى ألوانه جميعا بصبغ إسلامى خالص، فى معانيه وتعبيراته وألفاظه، تجلت بصورة أوضح فيما حاوله بعض الشعراء الذين تعمقوا روح الإسلام من محاكاة المعانى الإسلامية، والتعاليم الدينية، وآيات الكتاب الحكيم.

واتسم الشعر أيضا بعدة طوابع شعبية فى نصوصه ورواياته، وما دار حول شعرائه من أقاصيص، بفعل اهتمامات أفراد الشعب فى المعارك وعلى أطرافها، وتغنّيهم بانتصارات المسلمين، ورغبتهم فى تصويرها تصويرا معجبا، يرضى نوازع الزهو فيهم، وتملق القصاص فيهم هذه المنازع وأرضوها بما زادوه فى قصص الفتوح، وما نسبوه إلى فرسانها المشهورين من أفعال، تحولت بسيرهم من الواقع إلى ما يكاد يشبه الأساطير، ونسبته إلى من لم تكن له شهرة بالشعر منهم. وللأسف ضاع جل هذا الشعر ولم يبق منه شيء وإن وجدنا أثر هذه التزيدات واضحا فى سير الفرسان ذاتها.

وتخلف عن هذه المعارك بعض أبيات من الشعر، قالتها العصبيات إبان المواقع الفاصلة، من أجل المفاخرة بين أحياء العرب، كالذى حدث فى القادسية، من نسبة الشعر إلى الجن، وهذا فى حد ذاته يفسر اتجاها شعبيا إلى إظهار الاهتمام البالغ بهذه الواقعة، ويكشف فى نفس الوقت عن ثقافة العامة، وإيمانها بالمتوارثات الشعبية.

ويمثل الشعر الذى لا نعرف له قائلا قدرا كبيرا من شعر الفتح، يعالج كل موضوعات هذا الشعر، وينطبع هذا القدر بطوابع شعبية تتجلى فى تغنيه بروح الجماعة، وفى تغنى الناس به ترنما، وما يبدو فيه من بساطة وسهولة وقرب من الحديث العادى، الذى يدل على أنه شعر عامة الجند. كما يبدو من كثرة الرجز فيه وفى هلهلته وضعفه.

ولا ريب أن قيمة شعر الفتوح تنبع من كونه المتنفس الشعرى الوحيد فى عصر صدر الإسلام، والتعبير الأدبى الوحيد أيضا عن الحياة الإسلامية فى هذا العصر، بتصويره لتلك الآثار التى تركها الإسلام فى نفسية العربى، والتغيير الهائل الذى أحدثته فى نفسه وفى أعماله، كما أنه يرسم صورة رائعة لفعل هذه الآثار فى الانطلاقة المذهلة، التى تمثلت فى الفتوحات الإسلامية. ويرسم صورا رائعة للفروسية العربية فى ملحمتها الخالدة.

وهو فضلا عن ذلك يمثل سجلا وافيا، ووثيقة تاريخية أو اجتماعية، وشعورية لهذه الملحمة، تصحح الحوادث التاريخية، وتعطينا صورة لحياة الفاتحين ومشاعرهم.

وبرغم قصر المدة التى تمت فيها هذه الوثبة أفلح الشعر فى إعطائنا ملامح بارزة للمناطق التى افتتحها المسلمون، كما ألقى إلينا ببعض الضوء على مدى التزاوج الذى بدأ يحدث بين النفوس العربية وبيئاتها الجديدة، والانعكاسات الشعورية المتولدة عن هذا الاحتكاك البكر بين العرب ومواليهم، وسجل عواطف المحاربين بعيدا عن مواطنهم وحنينهم إليها.

ويعتبر هذا الشعر ــ الذى هاجر فى صدور المحاربين وعلى ألسنتهم إلى هذه المناطق على تفاوت فى غنائه وكثرته ــ البذرة الأولى للشعر العربى فى هذه الأمصار الجديدة، التى وسمتها بسمات أدبية معينة، فضلا عن تصوير هذا الشعر لحياة المسلمين فى الأمصار الجديدة، وما اكتنف حياتهم من جراء معيشتهم فى مجتمعات إسلامية جديدة.

وإذا كانت الفتوح قد مثلت أكبر هدف شغل المسلمين فى فترة بعينها صورها هذا الشعر الإسلامى ــ فإن قيمة شعر الفتوح لا تكمن فى مجرد مواكبته لحوادث الفتح فحسب، بل تكمن فى تصوير حياة المسلمين جميعا فى هذه الفترة. ومن ثم يكون شعر الفتح ممثلا لعصر صدر الإسلام تمثيلا كاملا. ويكتسب من هذه القيمة قيمة تاريخية واجتماعية، لعصر من العصور الأدبية، طالما مر الباحثون به مرور الكرام، ونسبوا إليه همود حركة الشعر وجمودها.

ويصبح من ثم أدق نموذج للشعر الإسلامى، والمجال الطبيعى لاستجلاء آثار الإسلام فى الشعر العربى، لمواكبته قيمه ومثله وحياته، وتطوره مع أهدافه وغاياته بتصويره لأضخم جوانبه، وكانت النتيجة اكتسابه طوابع فنية خاصة به.

وهذه الطوابع الفنية التى طبعت شعر الفتح استمدها من الإطار الفكرى الإسلامى، من ظروف حركة الفتح التي صدر فى خلالها، ومن التقاليد الفنية الموروثة للشعر العربى، على اختلاف فى مدى هذه المصادر وفاعليتها.

فطابع الالتزام الذى طبع الشعر نتيجة لالتزامه بغايات ومبادئ يعمل فى خدمتها أداة اجتماعية وفكرية طابع مستمد من الفكر الإسلامى، ومن جدية الظروف التى صدر فيها وسموها. وطابع القصر والإيجاز الذى اتسمت به قصائد شعر الفتح مستمد من ظروف القلق والاضطراب والحركة فى الميادين، ومن روح الإسلام التى تكره الثرثرة والتفيقه، ومن الموروثات القديمة التى قررها الذوق العربى من قديم، فى كراهة الإسهاب والإطالة، وإعجابه بالإيجاز البليغ.

أما العفوية التى وسمت شعر الفتح نتيجة لظروف القتال، وتعبير المجاهدين عن أنفسهم تعبيرا قريبا من التنفيس الشافى لأرواحهم من مخزون الطاقات النفسية، وتطهيرها فى سرعة وحرارة، ودون تعمل أو تمهل تستمد أيضا من روح الإسلام، التى تكره التقعر والالتواء، وتتنكب التعمل وتقصد إلى السماحة والطبع والصدق.

٢ـ ثمار البحث

ولست أزعم أنى قد أتيت بجديد خارق فى هذا البحث. وكل ما فى الأمر أنه تأتى لى أن أنعم النظر فى هذا الشعر فوجدته يستطيع النهوض أمام الشعر العربى الذى نعرف فى كل العصور الأدبية، وأنه يمكنه أن يكون مرآة لهذه الفترة الجليلة من تاريخ الإسلام والمسلمين.

إذ يستطيع أن يعين الباحثين فى تاريخ الفتوح الإسلامية إعانة ملحوظة، فى تصحيحه لحوادث التاريخ التى سجلها. كما يعين الباحثين فى المجتمع الإسلامى فى هذه الحقبة على الكشف عن النظم الاجتماعية والإدارية، والعلاقات الاجتماعية بين المسلمين، وبينهم وبين حكامهم وأمرائهم، كما يصور الانطباعات النفسية للفاتحين، وصدى هذه الأحداث على نفوسهم.

ويستطيع شعر الفتح فضلا عن ذلك أن يكشف بطريق إيجابى أو سلبى عن غزارة الإنتاج الشعرى فى بيئات إسلامية بعينها، وقلته فى بيئات أخرى، تدفع الباحث إلى تعقب مواكب الفاتحين إلى هذه البيئات، ليحقق هذه الحقائق التى صار لها فى دراستنا الأدبية وزن ملحوظ، ليصدر مثل هذه الأحكام مطمئنا إلى صحتها، بعد التحقق من تصنيف الفاتحين فى هجرتهم إلى هذه البيئات.

ويغرى شعر الفتح بدراسة الشعراء الذين أسهموا فى تصوير الفتوح دراسة تبين مدى تأثرهم بالمثل الإسلامية، والأحداث الخطيرة التى تعرضوا لها فى ظلال الإسلام. ويستطيع الباحث بهذا وبمقارنتهم بشعراء آخرين ألهبتهم هذه الأحداث أن يتبين عمق هذه الآثار فى نفوس جيل من المسلمين تعمق الإسلام، وجيل آخر من المخضرمين لم يمسسه من آثار الفكرة الجديدة شىء على الإطلاق. وعلى حين انطلقت ألسنة الفاتحين المسلمين بالشعر فذكت جذوته بعد خمود، نرى الشعراء القدامى لا يستطيعون الخروج من إجفالهم، رغم ما حاولته الروايات من تشويه هذه الحقيقة، وتقوية دورهم فى الفتوح، بإضافة شعرهم الجاهلى إلى شعرهم الإسلامى القليل.

وبرغم هذا يستطيع الشعراء المغمورون أن يرسموا جوانب هذه الحركة بصورة لافتة، ويمثل شعرهم جميعا تعبيرا دقيقا عن الحياة الإسلامية فى هذه الفترة التى اتسمت بالفتوح والانتشار والحركة. وهو لا يقصر عن تصويرها أدنى تقصير، وكأنه يثبت بهذا خطأ الفكرة التى تذهب إلى أن العرب لهوا بالفتوح عن الشعر.

وهو ــ لتصوير جوانب الحياة ومثلها وقيمها ــ يعتبر مرآة للعصر الإسلامى، يبتغى فيه تبين صورة الحياة الإسلامية وآثار الإسلام فى النفسية العربية ويأخذ بهذه القيمة مكانه بين عصور الأدب المختلفة، كمجاز للشعر العربى من العصر الجاهلى إلى العصر الأموى، بما اكتسب من طوابع إسلامية، تطورت فيه تطورا محدودا، وامتد تطورها من بعد، كما هو واضح فى شعر الجهاد والرثاء، وما يسمهما من طوابع إسلامية. فكأنه خلص الشعر من قيود الجاهلية، وأسلمه إلى العصر الأموى، ليتطور فيه تطورا ملحوظا ورغم هذا فقد حقق تطورات جديرة بالتدبر، كما هو واضح فى شعر رثاء الأشلاء. واكتسب موضوعات جديدة لم تعرف فى الأدب العربى القديم، كشعر الحنين الذى ورث بكاء الأطلال إلى حين، وأورثه لشعر الغزل العذرى فيما بعد، وكشعر المشاهد الغريبة التى سجلت فى الأدب لأول مرة.

كما يعتبر التطور بوزن الرجز إلى أن يكون قالبا شعريا ممهدا لما كان بعد من تحديد لهذا القالب عند الرجاز الأمويين والعناية به. وفضلا عن تصوير هذا الشعر للطوابع الإسلامية التى انطبعت بها حياة الناس ومشاعرهم فإنه تظهر فيه آثار الاهتمامات الشعبية، وما شاع حوله من أقاصيص الفرسان الشعراء.

وفضلا عن هذا اكتسب الشعر لنفسه طوابع فنية اتسم بها، تقربه إلى الناس، وتجعل فى قراءته لذة فنية طبيعية، لا تتيسر لشعر كثير مثله.

وفى هذه الخاتمة التى أسأل الله حسنها أرى أن هذا الموضوع يستحق أن يستكمل بحثا فى العصور الإسلامية التالية، ليتم تصوير الملحمة الإسلامية الكبيرة. وبالله التوفيق.

***

obeikandl.com

ثبت المصادر

١ ـ ابن الأثير (عز الدين)، الكامل فى التاريخ ليدن/ ١٨٦٧هـ.

٢ ـ أسد الغابة فى معرفة الصحابة (جمعية المعارف بالقاهرة سنة١٢٨٦هـ).

٣ ـ ابن الأثير (ضياء الدين) ـ المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر، نهضة مصر ١٩٥٩.

٤ ـ إبراهيم العدوى، الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم، مطبعة الرسالة بالقاهرة ١٩٥١.

٥ ـ أحمد أمين، ضحى الإسلام، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٩.

٦ ـ أحمد أمين، فجر الإسلام، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٩.

٧ ـ الأصفهانى (أبو الفرج)، الأغانى، ط، الساسى دار الكتب التقدم ١٣٢٢هـ.

٨ ـ ابن أبى أصيبعة، طبقات الأطباء، الطبعة الذهبية ١٨٨٢.

٩ ـ أوليرى، بلاد العرب قبل الإسلام، لندن/ ١٩٢٧.

١٠ـ بتلر، فتح العرب لمصر، ترجمة: أبو حديد/ لجنة التأليف والترجمة دار الكتب ١٩٣٣.

١١ ـ بروكلمان تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة/ نبيه فارس البعليكى/ دار العلم للملايين ١٩٤٩.

١٢ ـ البستانى، ترجمة إلياذة هوميرزس، طبعة الهلال مصر سنة ١٩٠٤.

١٣ـ البلاذرى، فتوح البلدان، ليدن/ ١٨٦٦م.

١٤ـ البغدادى (عبد القادر)، خزانة الأدب، ط بولاق ١٢٩٩هـ.

١٥ـ التغربردى (أبو المحاسن)، النجوم الزاهرة فى أخبار ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب ١٩٣٨م.

١٦ـ الجاحظ، الحيوان، ط. الحلبى.

١٧ـ ابن حجر العسقلانى ـ٨٥٢هـ، الإصابة فى تمييز الصحابة، مطبعة السعادة بمصر ١٣٢٣هـ.

١٨ـ ابن حوقل، المسالك والممالك، ليدن/ ١٨٧٣م.

١٩ـ حسن إبراهيم حسن، عمرو بن العاص، مطبعة المعارف بالقاهرة ١٩٢٦.

٢٠ـ حسين نصار، مصر العربية، الجمعية الأدبية ١٩٦١.

٢١ـ ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، بولاق/ ١٢٨٤هـ.

٢٢ ـ ابن خلدون، المقدمة، الطبعة الأدبية بيروت سنة ١٨٨٦.

٢٣ـ ابن دقماق المصرى، الانتصار بواسطة عقد الأمصار، بولاق/ ١٣١٤هـ.

٢٤ـ الدينورى (أبو حنيفة)، الأخبار الطوال، وزارة الثقافة/ ١٩٦٠.

٢٥ـ ابن رشيق القيروانى، العمدة، مطبعة السعادة١٩٠٧.

٢٦ـ ابن زينى دحلان، الفتوحات الإسلامية، المطبعة الشرقية بالخرنفش/ ١٣٢٣هـ.

٢٧ ـ زكى المحاسنى، شعر الحرب فى أدب العرب، دار الفكر العربى القاهرة١٩٤٧.

٢٨ـ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ليدن/ ١٣٢٢هـ.

٢٩ـ ابن سلام، طبقات الشعراء (الفحول)، المعارف/ ١٩٥٢م.

٣٠ـ سيدة إسماعيل الكاشف، مصر فى فجر الإسلام، دار الفكر العربى ١٩٤٧م.

٣١ـ السيوطى (جلال الدين)، حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة، المطبعة الشرقية.

٣٢ـ شكرى فيصل، حركة الفتح الإسلامى، دار الكتاب العربى بمصر سنة ١٩٥٢م.

٣٣ـ شكرى فيصل، المجتمعات الإسلامية، دار الكتاب العربى بمصر سنة ١٩٥٢م.

٣٤ـ شوقى ضيف، التطور والتجديد فى الشعر الأموى، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٢م.

٣٥ـ شهاب الدين الأبشيهى، المستطرف فى كل فن مستظرف، طبع حسين حسنى سنة ١٢٩٢هـ.

obeikandi.com

٣٦ ـ الشهرستانى، الملل والنحل بهامش الفصل فى الملل والأهواء لابن حزم، الطبعة الأدبية بمصر ١٣٢٠هـ.

٣٧ ـ الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، ليدن/ ١٨٩٣م.

٣٨ـ طه حسين، فى الأدب الجاهلى، دار المعارف ١٩٥٤.

٣٩ ـ طه حسين، حديث الأربعاء، دار المعارف ١٩٥٤.

٤٠ـ ابن عبد البر النمرى القرطبى، الاستيعاب فى معرفة الأصحاب، حيدر آباد ١٣١٨هـ.

٤١ـ ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، تورى ليدن/ ١٩٢٠ والجزء الخاص بمصر (ماسيه) ١٩١٤.

٤٢ ـ عبد الرازق حميدة الأدب العربى فى مصر، لجنة البيان العربى سنة ١٩٥١.

٤٣ـ ابن عبد ربه، العقد الفريد، لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٢م.

٤٤ـ ابن عساكر، التاريخ الكبير، ط. روضة الشام/ ١٣٢٩هـ.

٤٥ـ العقاد، (عباس العقاد) أعلام الإسلام.

٤٦ـ عمر الدسوقى، الفتوة عند العرب، مكتبة نهضة مصر سنة ١٩٥٩.

٤٧ـ فكا، دائرة المعارف الأسلامية، فصل (أسامة).

٤٨ـ فيليب حتى، تاريخ العرب، بيروت دار الكشاف ١٩٥١م.

٤٩ـ القالى (أبو على)، ذيل الأمالى، دار الكتب ١٩٢٦.

٥٠ـ ابن قتيبة الشعر والشعراء، إحياء الكتب العربية سنة١٣٦٤هـ.

٥١ـ القفطى، أخبار الحكماء، طبع السعادة بمصر، تاريخ الحكماء، طبع أوربا.

٥٢ـ القلقشندى، صبح الأعشى، المطبعة الأميرية ١٩١٩م.

٥٣ـ الكندى، الولاة والقضاء، الكاثوليكية بيروت سنة ١٩٠٨.

٥٤ـ ماسينيون، خطط الكوفة، ترجمة المصعبى.

٥٥ـ المبرد، الكامل التقدم/ ١٣٢٣هـ.

٥٦ـ محمد أحمد حسونة، الجغرافيا التاريخية الإسلامية، مصر ١٩٥٠م.

٥٧ـ محمد حسين هيكل، حياة محمد، دار القلم ١٩٦٠.

٥٨ـ محمد حسين هيكل، الصديق أبو بكر، مطبعة مصر ١٩٤٢م.

٥٩ـ محمد حسين هيكل، الفاروق عمر، مطبعة مصر ١٩٤٥م.

٦٠ـ محمد كرد على، الإسلام والحضارة العربية، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٩.

٦١ـ المسعودى ـ ٣٤٦هـ، مروج الذهب ومعادن الجوهر، مطبعة الشرق الاسلامية بالقاهرة.

٦٢ـ المفضل الضبى، المفضليات، الآباء اليسوعيين ١٩٢٠ ودار المعارف.

٦٣ـ المقريزى، المواعظ والاعتبار، بولاق ١٢٧٠هـ.

٦٤ـ ملن، تاريخ مصر تحت حكم الرومان، ط سنة ١٩١٣.

٦٥ـ نصر بن مزاحم المنقرى، وقعة صفين، أحياء الكتب العربية.

٦٦ـ نولدكه أمراء غسان، ترجمة بندلى جوزى وقسطنطين زريق، بيروت ١٩٣٣.

٦٧ـ ابن هشام، التيجانى فى ملوك حمير السيرة، ط حيدر أباد.

٦٨ـ ابن هشام، السيرة، ط مصطفى الحلبى ١٣٢٩هـ.

٦٩ـ الواقدى، فتوح الشام، مصر ١٣٠٢هـ.

٧٠ـ ياقوت الحموى (شهاب الدين)، معجم البلدان، ليبزج/ ١٨٦٦م.

٧١ـ ديوان الهذليين، دار الكتب المصرية.

٧٢ـ يوليوس قلهوزن، الدولة العربية وسقوطها، ترجمة دكتور يوسف العشى، مطبعة الجامعة السورية، دمشق سنة ١٩٥٦.